حقيقة التصوف

إعداد عمر محمد قطلب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق الإنسان وعلَّمه البيان، وأنزل قولَه سبحانه (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) النحل: ٩٠، وأرشد المؤمنين إلى أقوم الطرائق، وصلى الله على سيدنا محمدٍ كريم الأخلاق، وعلى آله وأصحابه منارات الهدى، ونجوم الهداية، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد فهذه لمحةٌ موجزَةٌ مختَصَرَةٌ، وصفحاتٌ مضيئة معتبَرَةٌ، ترسم في ذهن القارئ حقيقة التصوف الإسلامي في ماضيه وحاضره، وذلك من مصادره المعتمَدة، وبعيدًا عن التعصُّب والانغلاق.

ويتبين لك أخي المسلم من خلال هذا البحث اللطيف أن التصوفَ أصلٌ من أصول الإسلام وليس دخيلا عليه، بل الدخيل هو الذي يحاربه ويحاربُ أهلَه، ويرمي هذا العلم (التصوف) كلَّه بالتهم الباطلةِ حِقدًا وحَسَدًا من عند أنفسهم، فطعنوا في علماء الأمة الذين انتسبوا وشربوا من فيض هذا العلم الشريف.

على الله التوكل، وعليه المعوَّل وبأسمائه أتوسل أن يخلِّصَ قلوبنا من معاصيها وأن يجمعَ أمَّتَنا دانيها وقاصيها، وأن يقرِّبَنا منه تعالى شأنُه وعزَّ سلطانه.

والحمد لله رب العالمين.

مقدمة:

قبل البدء في هذا البحث، لا بد من التنبيه إلى عدة أمور:

1- إذا أردنا أن نحكمَ على شيءٍ في حياتنا يجبُ علينا الرجوعُ إلى أصوله ومنابعه وأهله، وذلك للتعرف عليه أولًا، ثم الحكم عليه وتقييمه حَسَبَ قواعده ثانيًا.
فإن كانت قواعدُه ومنابعُه باطلة حكَمْنا ببطلانه وحذَّرْنا منه، وإن كانتْ أصولُه صحيحةً ننظرُ إلى واقعِ هذا الشيءِ فإن تطابَقَ معَ قواعده فالحمد لله، وإن لم يتطابقْ واقعُه مع أصوله ومبادئِه الأساسية صحَّحْناه وأصلحناه حَسَبَ قواعدِه وضوابطه.
وهذا هو المنهجُ السليمُ.
أما الحكمُ بناءً على ما يَظهَر لنا فحكمٌ ظالمٌ خاطئٌ، وليستْ هذه طريقةً علميةً سليمةً صحيحة عادلة.
ولو أردنا أن نعتبر هذه الطريقةَ صحيحةً، وأردنا أن نحكم على الإسلام من خلال أهله وواقِعِه، لكان حكمُنا أنَّ الإسلامَ سيئٌ وليس دينًا نافعًا- والعياذ بالله-، لأننا وجدْنا كثيرًا من أهلِ الإسلام وممَنِ انتسبوا إليه أصحابَ معاصي وآثامٍ وبِدَعٍ وفوضى في الحياة، فهل يقبلُ مسلمٌ هذا الكلام؟؟!!!!!
وهل نقبلُ من كافرٍ إذا أراد التعرفَ على دينِنا الحنيفِ أن يقرأَ كُتُبَ أعداء الإسلام والحاقدين عليه، ثم يُصدرُ أحكامَه؟؟!! أم أننا نقولُ له اقرأْ ما كَتبَ أهلُ الإسلام عن دينهم لتعرفَه.
وهكذا التصوف[1] إذا نظرنا إلى أهله ومَنِ انتسب إليه زورًا أو جهلًا وجدْنا الصغائرَ والكبائرَ من الأخطاء، وبعضُها يصلُ إلى الكفر، ولكنَّ هذا لا يكفي للحُكم على التصوف. فمَن أرادَ العدلَ والإنصافَ في أحكامِه وآرائِه عن التصوف فعليه الرجوعُ إلى أهله الحقيقيين وما كتبوه عن التصوفِ وأسَّسُوا له.

2- إن الناظرَ في تاريخنا الإسلامي يجدُ، أنه على مرِّ القرون الاثنَي عشَرَ الماضية (القرون الأولى حتى القرنِ الثاني عشر) أي عامة قرونِ الإسلام، أنَّ الشائعَ بين الأمة كلِّها (علماء وأئمة وحكام وتجار ومفكرين وعوام) أن كلمة التصوف هي مَدحٌ وثناء، لأن المفهومَ الصحيحَ للتصوف هو الوصولُ إلى مقام الإحسانِ والتحقُّقُ به كما سنرى.
فإذا أراد أحدٌ أن يمدح أحدًا يقول عنه (صوفي).
وإذا نظرتَ في شرح الإمام النووي لصحيح مسلم أو أي إمامٍ غيره تراه يذكرُ مشايخَه، فإذا أراد أن يمدحَ بعضَهم يقولُ (وكان صوفيًا)، وكذلك الإمام الحافظ الذهبي في كتابه (سِيَرُ أعلام النبلاء) وغيره.

---

[1] لم نضرب مثالًا بين التصوف والإسلام على أنهما متغايران، بل الإسلام مجموعٌ يدخلُ فيه التصوف إذ هو جزء أصيل منه.

وبذلك تجدُه يُعمِّقُ في النفوسِ معنى الإجلالِ والاحترام للتصوف، فالشائعُ بين علماء التوحيد وعلماء الحديث والفقه والتاريخ والحُكَّام والناس جميعًا أن الصوفـِيَّ هو الذي اعتنى بإصلاحِ قلبِه.
ويتفقُ المسلمون أن إصلاحَ القلبِ يحتاج إلى علمٍ وعملٍ، وإلى منهجٍ لتعلُّمه والعمل به ليؤتي ثمرتَه، وما الفوضى الموجودةُ في التصوف إلا من إهمالِ منهجِه السليم.

وبناءً عليه، لا يوجد تصوفٌ صحيحٌ وتصوفٌ باطلٌ، لأنَّ الأصلَ في التصوف أنه صحيح وأصلٌ أصيل من هذا الدين الحنيف، وهذا الذي كان متعارَفًا عليه منذ القرون الأولى.

ولكنْ نقول تصوفٌ صحيح وآخَرُ باطلٌ لِشِدةِ الخَلْطِ والفوضى والحرب الذي طالتْ هذا العلمَ الشريفَ في عصرنا.

فكُتُبُ التصوف الذي كَتبَها أئمةُ التصوف كالإمام القشيري والإمام الكلاباذي والإمام حجةِ الإسلام الغزالي والإمام ابن عطاء الله السكندري والإمام أحمد زرُّوق والإمام عبد الله بن علوي الحداد رضي الله عنهم، تجد فيها منهجًا من الإصلاح يحتاجه العالَم كلُّه اليوم.

تعريف التصوف

اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في تعريف التصوف على أقوالٍ كثيرة، والسبب في ذلك أن كلَّ واحدٍ يعبر عن التصوف بما يشعر به حين عرَّفَه.

وهذه الاختلافاتُ لا تقدحُ في التصوف لأنها تعبر عن مضمونه ومعناه، ومعلومٌ أن القاعدة الشرعية تقول أنَّ (العبرة بالمعاني لا بالألفاظ والمباني) وهذا يعني أنه لا يُلتفت إلى الاسم طالما تمَّ الاتفاق على المعنى، وقاعدة أخرى تقول أنه (لا مُشاحَّةَ في الاصطلاح) يعني أننا إذا اتفقنا على المعنى فلا نختلف على الأسماء، لذا يمكننا أن نسميَ التصوف: علمَ السلوك، علمَ تزكية النفس، علمَ التربية.

ولا بد من العلم أن التصوف هو الركن الثالث من الدين وهو الإحسان.

وذلك أن الإحسان هو (أن تعبد اللهَ كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) كما في الحديث الصحيح، ويلاحَظ من هذا الحديث أن الأساس الذي يقوم عليه الإحسان هو: العبادة والرؤية أي المشاهدة (الشهود).

وكلمة (تعبد) تدل على أن صاحب مقام الإحسان لا فعل له إلا العبادة، وأن هذه العبادة شاملة لشؤون العابد وحياته، فهو عابدٌ لله بالإيمان والإسلام باللسان والقلب وأنواع الطاعات الحاصلة بالجوارح.

ومن هنا كان الإحسان مراقبة الله تعالى في السر والعلانية والشعور بوجوده تعالى، فهو الكمال المتضمِّن للإسلام والإيمان، فيكون الإحسان عملٌ قلبيٌ يقترنُ بجميع أفعال العبد فيحوِّلها من مجرد أفعال إلى أعمال عبادية لله تعالى، وهذا العمل القلبي هو ما يعبَّر عنه بالمشاهدة والمقصود به الحضور مع الله أي استشعار رؤيته لك في كل وقت.

وللإحسان شروط لا يتأتى بدونها:

- الاعتقاد الموافق للكتاب والسنة.

- العمل الخالي من البدعة.

- القول المحفوظ من اللغو.

ومن غيرها لا يكون المسلم محسِنًا.

وللدلالة على معنى ما نتحدث به، علينا أن نعرف هذا الشيء الذي سماه العلماء بالتصوف، لذلك ننقلُ هنا بعض التعريفات التي ارتضاها أهل التصوف في كل وقتٍ وعصر.

1- سئل الإمام الجُنيد (وهو مرجع الصوفية): ما التصوف؟ فقال: تصفيةُ القلبِ عن موافَقةِ البريةِ[2]، ومفارقةُ الأخلاقِ الطبيعية[3]، وإخمادُ الصفاتِ البشريةِ[4]، ومجانَبةُ الدواعي النفسيةِ.....واتباعُ الرسولِ صلى الله عليه وسلم في الشريعةِ. التعرف لمذهب أهل التصوف.

2- قال الجنيد رضي الله عنه: الصوفي كالأرض يُطرح عليه كلُّ قبيح، ولا يَخرُج منها إلا كل مليح.

3- وقال أيضًا: هو تركُ كلِّ خُلُقٍ دَنِيٍّ، والاتصافُ بكلِّ خُلُقٍ سَنِيٍّ.

4- سُئل أبو الحسين النوري رحمه الله تعالى: ما التصوف؟ فقال: تركُ كلِّ حظٍ للنفسِ. اللُّمَع.

5- وقال سيدي الإمام الرباني الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس الله سرَّه: التصوف هو الصدقُ مع الحق، وحُسنُ الخُلُق مع الخَلْق.

6- وقال الإمام الغزالي رضي الله عنه في رسالة (أيها الولد): ... فمَن استقام وأحسنَ خُلُقَه بالناس وعاملهم بالحِلم فهو صوفيٌّ.

7- قال شيخُ الإسلام زكريا الأنصاري رحمه الله: التصوفُ علمٌ تُعرفُ به أحوالُ تزكيةِ النفسِ، وتصفيةُ الأخلاقِ وتعميرُ الظاهرِ والباطنِ لنَيلِ السعادةِ الأبديةِ. من شرحه على رسالة القشيري.

والسعادةُ الأبَديةُ هي رضا الله تعالى.

8- قال الإمام أحمد زَرُّوق رحمه الله: التصوفُ علمٌ قُصِدَ به إصلاحُ القلوبِ وإفرادُها لله تعالى عما سواه. قواعد التصوف.

9- قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: التصوفُ تدريبُ النفسِ على العبوديةِ.

10- قال الشيخ أبو المواهب الشعراني رضي الله عنه: التصوفُ زُبدتُه عملُ العبدِ بأحكامِ الشريعةِ إذا خَلا عملُه من العِللِ وحظوظِ النفسِ.

11- قال الإمام أحمد ابن عجيبة رحمه الله تعالى: التصوفُ هو علمٌ يُعرفُ به كيفيةُ السلوكِ إلى حضرةِ مَلِكِ الملوكِ، وتصفيةِ البواطنِ عن الرذائلِ، وتحلِيَتِها بأنواعِ الفضائلِ، وأولُه علمٌ وأوسطُه عملٌ وآخِرُه موهبةٌ. معراج التشوف إلى حقيقة التصوف.

---

2 عدم موافقة البرية يقصد بها عدم موافقة الخلْقِ في الشهوات والمعاصي.

3 ترك ما اعتادتْ عليه النفس حتى لا تأسرَ القلب وتلهيه بمباحات الدنيا.

4 يقصد بكلامه إخماد الصفات المذمومة في النفس.

12- قال القاشاني رحمه الله: التصوفُ هو حفظُ شرائعِ الدينِ، وحُسنُ الخُلُقِ مع الخَلْقِ أجمعين، وسلبُ الإرادة لله تعالى.

حفظُ شرائعِ الدينِ إسلامٌ، وحُسنُ الخُلُقِ إيمانٌ، وسَلبُ الإرادةِ للهِ تعالى إحسانٌ.

13- قال الشيخ أبو الفضل عبدُ الله بنُ الصديق الغماري: إنَّ الصوفيَّ كبيرُ القَدْرِ، عميمٌ نفعُه...... يزكِّي النفسَ من الدَّنَسِ، ويُطهِّرُ الأنفاسَ من الأرجاسِ، ويرَقِّي الأرواحَ إلى مراقي الفلاحِ، ويوصلُ الإنسانَ إلى مَرضاةِ الرحمنِ، وفوقَ هذا هو ركْنٌ من أركانِ الدينِ....

14- قال الإمام السيوطي رحمه الله: وأما علمُ القَلبِ ومعرفةُ أمراضِه منَ الحسَدِ والعُجْبِ والرياءِ ونحوِها، فقال الغزاليُّ رحمه الله: إنها فرضُ عَيْنٍ. الأشباه والنظائر.

15- قال الشيخ محمد أمين الكردي النقشبندي رضي الله عنه: التصوف هو علمٌ يُعرَفُ به أحوال النفس محمودها ومذمومها، وكيفيةُ تطهيرها من المذموم منها، وتحليتها بالاتصاف بمحمودها، وكيفية السلوك والسير إلى الله تعالى والفرار إليه (ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين) الذاريات: ٥٠ ، وثمرتُه تهذيب القلوب ومعرفة علام الغيوب.......... من تنوير القلوب له.

16- قال الشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله تعالى: الصوفي أي الذي صُوفيَ، فـ(ال) في (الصوفي) هي اسمٌ موصول وليست (ال) التعريف[5]. فالمعنى أن الصوفي هو الذي صافى الله فصافاه الله تعالى.

17- يقول الإمام عمر السهروردي رضي الله عنه: فالصوفي هو الذي يكون دائم التصفية، لا يزال يصفي الأوقات عن شَوب الأكدار[6] بتصفية القلب عن شَوب النفس، ويعينه على هذه التصفية دوامُ افتقاره إلى مولاه، فبدوام الافتقار يُنقى من الكَدَر.

18- يقول الإمام الرواس رضي الله عنه في كتابه (كنه ما لا بد للمؤمن منه): الطريقُ إلى الله الشرعُ الشريف، والتزامُ طريقِ أهل السنة والجماعة، والاستقامةُ على ما يرضي الله ورسولَه صلى الله عليه وسلم من كل قولٍ وعملٍ، والتحققُ بحال النبي صلى الله عليه وسلم، والتخلقُ بأخلاقه الكريمة، ولُبُّ هذا صدقُ التوحيد، وتأييدُ كلام الله تعالى، وتعضيدُ سنةِ نبيِّه عليه أفضل الصلاة والسلام، وهدم البدع السيئة بالحكمة والموعظة

---

5 كما تقول: جاء المكرمُ أخاه، أي جاء الذي أكرم أخاه.

6 يصفي أوقاته بأن يجتهد أن يكون دائم الحضور والمراقبة لربه وهذا يكون بتصفية القلب عن معكِّرات النفس.

الحسنة، والانتهاض لنفع الناس كلهم، فإن خلْقَ الله عيالُه، وأحبَّهم إليه أنفعُهم لعياله، وترويح النفس بالمباحات وإسعافها بالرخَص وحُسن الظن بالناس مع الغيرة لله، والاهتمام بإعلاء كلمة الدين، وعزِّ المسلمين، والطاعة لولي أمر المؤمنين، والانتصار لأهل الحق، والإعراض عن أهل الباطل، والزهد المحمدي أي أنه يكون زاهدًا بنفسه ساعيًا بالخير والسعة للمسلمين، راعيًا حق الأخوة الإيمانية، ثم حق الرَّحم، حافظًا للودِّ، موفيًا بالعهد، وافقًا عند الحد.

وللحكيم العاقل أن يتدبَّر زهد الإمام أبي بكر، والإمام عمر، والإمام عثمان، والإمام علي رضي الله عنهم أجمعين، وكيف أعزوا الدين، وأيدوا كلمة المسلمين، وفتحوا الأقطار وشيدوا الآثار، وعملوا عملَ مَن لا يموت في سبيل الله تعالى، وأما في أنفسهم فكان أحدهم يترقَّبُ الموت في كل طرفة عين، فعليهم سلام الله إذ هم الحكماء في دين الله تعالى، ولهذا المجمل تفصيل، ولكل جملةٍ منه ألفُ شاهدٍ من الكتاب والسنة وألف دليل، فمَن أراد أن يكون صوفيًا (أي مؤمنًا صافيًا من كل شائبة) فلينهج هذا الطريق على هذا المنوال، وإلا فهو بطَّال وإن الله يكره العبدَ البطّال.

وكلما تحركتِ النفسُ وظهرتْ بصفةٍ من صفاتها أدركها أي القلب ببصيرته النافذة وفرَّ منها إلى ربه[7]، فبدوام تصفيته جمعيتُه[8]، وبحركة نفسه تفرِقتُه وكدره، **فهو قائمٌ بربه على قلبه، وقائمٌ بقلبه على نفسه**، قال تعالى (كونوا قوامين لله شهداء بالقسط) المائدة:8، وهذه القوَّامية لله على النفس هو التحقق بالتصوف.

ومن روائع الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين) كلامُه عن معنى حديث (الطهور شطر الإيمان) فقال رضي الله عنه: يبعد أن يكون المراد بقوله صلى الله عليه وسلم: (الطهور شطر الإيمان) عمارة الظاهر بالتنظيف، بإفاضة الماء وإلقائه، وتخريب الباطن وإبقائه مشحونًا بالخبائث والأقذار فقط، هيهات هيهات.......

فالطهارة لها أربع مراتب:

الأولى: تطهير الظاهر عن الأحداث، وعن الأخبات والفضلات.

الثانية: تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام.

الثالثة: تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة.

---

7 إذا ظهرت النفس بصفتها المذمومة قام القلب بكشف خفايا شرها لأنه مصفى، ويلجأ دومًا إلى الله لتخليص النفس من أمراضها، فصدقُ التجائه إلى الله سببٌ من أسبابِ تهذيب نفسه.

8 جمعيته على ربه أي دوام حضوره وشعوره برقابة ربه عليه.

الرابعة: تطهير السر عما سوى الله تعالى وهي طهارة الأنبياء صلوات الله عليهم والصِّدِّيقين.اهـ.

ومن المعلوم أن التكاليفَ الشرعية منها ما يتعلق بالبدن (الجوارح) ومنها ما يتعلق بالقلب، فأعمال القلب منها مأمورات كالإيمان والإخلاص والرضى والصدق والصبر والتوكل، ومنها منهيات كالكفر والنفاق والكِبر والعجب والرياء والغرور والحِقد والحسد.

وما دام صلاح الإنسان مربوطًا بصلاح قلبه الذي هو مصدر أعماله الظاهرة، فيجب عليه العمل على إصلاحه بتنقيته من الصفات السيئة التي نهانا الله عنها، وتحليته بالصفات الحسنة التي أمرنا الله بها، وعندئذٍ يكون القلبُ سليمًا، وعلمُ التصوفِ إنما يهتمُّ بإصلاحِ قلبِ المسلمِ لا غير.

فبناءً على ذلك يُعتبرُ التصوف فرضًا على كلِّ مسلمٍ، لأنه مأمورٌ بإزالة أخلاقه السيئة وتهذيب نفسه، وإليه الإشارة بقوله سبحانه (وذَرُوا ظاهرَ الإثمِ وباطنَه)، والطريق لذلك إنما هو بالتصوف، ومَن وجد طريقةً أخرى ليعالجَ أمراض قلبه وتكون محفوظةً بقواعدِ الشريعة وَجَبَ عليه سلوكُها ولوسَـمَّاها بأيِّ اسمٍ، فلا عبرة بالأسماء بل بالمعاني.

وقد عبَّرَ أبو الوفا التفتازاني عن أهمية التصوف بقوله (ومن هذا يتبين لك أنَّ التصوفَ في الإسلام كعلمٍ ديني، يختصُّ بجانبِ الأخلاقِ والسلوكِ وهو روحُ الإسلامِ).

ويمكننا بعد هذه الكلمات أن نقول أن التصوف من حيث معناه هو:

- الاستقامة في قوله تعالى (فاستقم كما أُمرت).
- أن تكونَ ربَّانيًا لقوله تعالى (ولكن كونوا ربانيين).
- أن تكون زكيَّ النفس لقوله تعالى (ويزكيهم)، وقولِه (قد أفلح مَن زكاها).
- أن تكون محسِنًا لقوله صلى الله عليه وسلم (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه).

فلا خلاف ولا مشكلة في الأسماء طالما اتفقنا على الجوهر والمبدأ والغاية لهذا العلم الأصيل.

الخلاصة:

علمْنا أن الشريعة وما أُثرَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأقوال والأفعال ينقسم إلى قسمين:

- أفعالٌ وهيئاتٌ وأمور محسوسة كصلاةٍ ومناجاةٍ ومناسك وجهادٍ وغيره وقد اهتمَّ علمُ الحديث (روايةً وفهمًا) وعلمُ أصولِ الفِقْهِ وعلمُ الفِقه ببيانِها.
- وقسمٌ آخَر هو كيفياتٌ باطنيةٌ قلبية كانت تصاحبُ تلك الأفعال والهيئات المحسوسة كالإخلاص والصبر والزهد والتوكل والأدب والحياء والخوف والشكر....

فالفقه الظاهر كالجسد وهذه الأمور الباطنة كالروح لهذا الجسد، ويمكن أن نسميَ الأحكامَ الشرعية بالفقه الظاهر والأحكامَ القلبية بالفقه الباطن أو (الإحسان) أو (التزكية).

فالتصوف بهذا المعنى كان حالةً وسلوكًا تلقائيًا للصحابة الكرام بحكمِ اتصالهم برسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يكن هناك داعٍ لوضع المصطلَحات والتنبيهِ عليها وتدوين العلم.

وهذا مثل اللغة العربية فلم يكتبوها ولم تكن علمًا مستقِلًّا، لأن لُغَتَهم ولسانَهمُ العربيَّ كان سليمًا، ولكنْ مع مرور الزمن ودخول غير المسلمين في الإسلام والبعد عن عصر النبـي والصحابة قامَ العلماء بتقعيد اللغة العربية ودوَّنوها ووجعلوا لها منهجًا معروفًا إلى اليوم، كذلك قام علماءُ ربانيون يَدْعونَ لهذا العلم (فقه الباطن - التصوف) ووضعُوا له مصطلَحاتٍ ومنهَجًا، وكتبوا فيه كُتُبًا ليُعيدُوا الناسَ إلى أحوالِ سَلَفِهم الصالحِ من الصحابة والقرون الأولى.

فالتصوف ليس إلا عنوانًا للأحكام التي تعالج الباطنَ والقلبَ، كما تعالج أحكامُ الفقه الحياةَ الدينيةَ الظاهرةَ، وهذه الأحكامُ منصوصٌ عليها في القرآن والحديث كأحكام الفقه.

ويقول عباس محمود العقاد: (التصوفُ في الحقيقةِ غيرُ دخيلٍ في العقيدةِ الإسلاميةِ، ومثبوتٌ في آياتِ القرآنِ الكريمِ بأصولِه).

فالتصوف بمعناه الحقيقي السليم هو لُبُّ الإسلامِ، وجوهرُه المستَترُ في أعماقِ الإنسانِ المسلمِ، وبدونِه يصيرُ الإسلامُ مجردَ رسوم ومظاهرَ وشِعاراتٍ.

ولا تَقِفْ أخي المسلم على مشكلة الاسم بعد أن عرفتَ المضمون، ولا عبرة بالأسماء، فلا يضيرُك لو سميته بأي اسمٍ فكلُّ هذه الأسماء مستحدثة كاسم (علم الفقه) (علم الحديث) (علم العقيدة). والله المستعان.

ومن المعروف أننا لا نجد بين تعريفات التصوف تعريفًا يؤدي المعنى المطلوب، وكثُرَت تعاريفه لعِظَمِ شأنه ولتعلقه بالمعاني الذوقية التي يعسرُ ضبطُها بألفاظٍ جامعة مانعة، وكذلك كثُرَتْ تعاريف الحب لسرِّه ودِقَّته فلا تجد لفظًا يعرِّفُك بالحب.

وكل ما قالوه هو كلامٌ حولَ الحب وما يُحدثُه في خبايا النفس البشرية ويبقى ما لا يُمكن التعبير عنه.

ومن هذا المنطلق تشابَهَ الحبُّ والتصوفُ فقال القائل: التصوف هو علم الحب. وهذه كلمة في غاية الروعة، فلا يعرف معنى الحب الحقيقي إلا الصوفي، فإذا أردتَ أن تعرف كيف تحب، لا عليك إلا أن تفكر فيه فيكون عندك، إنه كامنٌ ومستورٌ في قلوبنا خِلقة وفطرة، وكأني بالتصوف يحرِّكُ حُبنا الأول لله عز وجل ليُكمِّل لنا سيرَنا إليه تعالى. والله أعلم.

ضوابط التصوف عند أهله

لكلِّ علمٍ من العلوم الإسلامية حدودٌ وقواعدُ ومصطلَحاتٌ خاصةٌ، وضوابطُ يُعرَفُ بها الأصيلُ من الدخيل في هذا العلم.

وبما أنَّ التصوفَ أحدُ هذه العلوم، فلا بد أنَّ له ضوابطَ تكشفُ جوهرَه وتنفي عنه مَنِ ادَّعاه.

وببسيطِ العبارةِ يمكنُنا أن نقولَ: إنَّ ضوابطَ التصوفِ هي التزامُ حدودِ الكتابِ والسنةِ بِدِقَّةٍ، لأنَّنا ذكرْنا في المبحثِ الأولِ أنَّ التصوفَ هو الإحسانُ و لا يكونُ إلا بعد التحقُّقِ والإتقانِ لِـمَقامَي الإسلامِ والإيمان. وصَدَقَ الإمام عبد الوهاب الشعرانيُّ رضي الله عنه بقوله في أَحَدِ كُتُبِه: الصوفيُّ عالـمٌ عَمِلَ بعِلْمِه على وجْهِ الإخلاص.

وتأييدًا لهذا، نذكر جملةً من أقوال السادةِ علماءِ التصوفِ الذين جمعُوا العلمَ الظاهرَ (التوحيد والفقه والأصول والتفسير....) مع العلم الباطن (التصوف)، وترى فيها رفضَهم لكلِّ ما يخالفُ ظاهرَ الكتابِ والسنةِ.

1- قال سيدُ القوم وشيخُهم الإمامُ الجُنَيد رحمه الله تعالى: (الطرُقُ كلُّها مسدودةٌ على الخَلْقِ إلا مَنِ اقْتفى آثارَ الرسولِ صلى الله عليه وسلم).

2- وقال: (علمُنا هذا مقيَّدٌ بالكتابِ والسنةِ، مَنْ لم يحفظِ القرآنَ ويكتبِ الحديثَ لا يُقتدى به في هذا الأمر).

3- قال أبو حفص الحداد رحمه الله تعالى: (مَن لم يَزِنْ أفعالَه وأحوالَه في كلِّ وقتٍ بالكتاب والسنة ولم يتَّهمْ خواطرَه فلا يُعَدُّ في ديوانِ الرِّجالِ).

4- قال أبو يزيد البِسطامي رحمه الله تعالى: (لو نظرتُم إلى رجُلٍ أُعطيَ من الكراماتِ حتى يطيرَ في الهواءِ، فلا تغترُّوا به حتى تنظُرُوا كيف تجدونَه عند الأمرِ والنهيِ وحفظِ الحدودِ وأداءِ الشريعةِ).

5- قال أحمد بن أبي الحواري رحمه الله تعالى: (مَن عملَ بلا اتباعِ سُنَّةٍ فباطلٌ عملُه).

6- قال أبو الحسين النوري رحمه الله تعالى: (مَن رأيتموه يَدَّعي مع الله عز وجلَّ حالةً تُخرجُه عن حدِّ العلمِ الشرعيِّ فلا تقربوه) لأنه شيطان.

7- قال أبو حمزة البغدادي (من أكابر شيوخ التصوف) وهو الذي كان يجالسُه الإمامُ أحمد رحمهما الله تعالى: (مَن عَلِمَ طريقَ الحقِّ سَهُلَ عليه

سُلوكُه، ولا دليلَ على الطريق إلى الله – التصوف – إلا بمتابعةِ الرسول صلى الله عليه وسلم في أحوالِه وأقوالِه وأفعالِه).

8- سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه وإليه تُنسَبُ الطريقةُ القادرية، يقول: (كلُّ حقيقةٍ لا تَشهدُ لها شريعةٌ فهي زندقة، طِرْ إلى الحقِّ سبحانه بجَناحَيِ الكتابِ والسنةِ، وادخلْ ويدُكَ في يدِ الرسولِ صلى الله عليه وسلم) من الفتح الرباني له.

والمقصود أن أيَّ مسألةٍ من مسائل التصوف إذا لم يشهدْ لها الشرعُ فهي بِدعةٌ وزَنْدَقَةٌ.

9- قال الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى: (إن المحقِّقينَ قالوا: لو رأيتَ إنسانًا يطيرُ في الهواءِ ويمشي على الماءِ وهو يتعاطى أمرًا مخالِفًا للشرعِ فاعلمْ أنَّه شيطانٌ).

10- قال أبو سليمانَ الداراني رحمه الله تعالى: (ربما يَقَعُ في قلبي نُكتةٌ من نُكَتِ القَومِ أيامًا فلا أقبلُها إلا بشاهدَينِ عَدْلَين: الكتابُ والسنةُ). النكتةُ هي المسألة الدقيقة العلمية أو اللطيفةُ العِلمية.

11- قال أبو سعيد الخرَّاز رحمه الله تعالى: (كلُّ باطنٍ يخالفُه ظاهرٌ فهو باطلٌ).

12- قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله تعالى: (مَن ألزمَ نفسَه آدابَ الشريعة نوَّرَ الله قلبَه بنورِ المعرفة، ولا مقامَ أشرفُ من مقامِ متابعةِ الحبيب صلى الله عليه وسلم في أوامرِه وأفعالِه وأخلاقِه).

13- قال الإمامُ محيي الدين النووي رضي الله عنه في رسالته في أصولِ التصوفِ: (وأصولُ التصوفِ خمسةٌ: 1- تقوى اللهِ في السرِّ والعَلَنِ. 2-اتباعُ السنةِ في الأقوالِ والأفعالِ. 3- الإعراضُ عن الخَلق في الإقبالِ والإدبارِ. 4- الرضا عن الله تعالى.

5- الرجوعُ إلى الله في السراءِ والضراءِ).

14- قال الإمامُ مالكٌ رضي الله عنه: (مَن تَصَوَّفَ ولم يتفَقَّه فقد تَزَنْدَقَ، ومَن تَفَقَّهَ ولم يَتَصَوَّفْ فقد تَفَسَّقَ، ومَن جـَمَعَ بينهما فقد تحقَّقَ).

وبهذا جعلَ التصوفَ والفقهَ (بمعنى الأحكام والعقائد) مُقْتـَرِنَانِ لا يَنْفَكُّ أحدُهما عن الآخَر، فالفِقْهُ بدونِ تصوُّفٍ باطلٌ، والتصوفُ بدون الفِقْهِ عاطلٌ.

15- قال أحمد زروق رحمه الله تعالى: (ومَن فيه خَصلةٌ من خمسِ خِصالٍ لا تَصِحُّ مَشْيَخَتُه، وهي: 1-الجهلُ بالدين. 2- إسقاطُ حُرمةِ المسلمين.

3- الدخولُ فيما لا يعنيه. 4- اتِّباعُ الهوى في كلِّ شيء. 5- سوءُ الخُلُقِ من غير مبالاة).

16- وقال أيضًا: (لا تصوفَ إلا بفقهٍ، إذ لا تُعرَفُ أحكامُ اللهِ الظاهرةِ إلا مِنه، ولا فِقهَ إلا بتصوفٍ، إذ لا عَمَلَ إلا بِصِدْقِ توجُّهٍ إلى اللهِ تعالى...) قواعد التصوف.

17- وقال أيضًا: (كلُّ شيخٍ لم يظهَرْ بالسنةِ فلا يصِحُّ اتباعُه لعَدَمِ تحقُّقِ حالِه، ولو صحَّ في نفسِه ولو ظهرَ عليه ألفُ ألفِ كرامةٍ من أمرِه) قواعد التصوف.

18- يقول سهلُ بنُ عبدِ اللهِ التُّستَري رضي الله عنه: (أصولُنا سبعةُ أشياءٍ: التمسُّكُ بكِتابِ اللهِ تعالى، والاقتداءُ بسنةِ رسولِه، وأكلُ الحلالِ، وكفُّ الأذى، واجتنابُ الآثام، والتوبةُ، وأداءُ الحقوقِ) طبقات الصوفية للسلمي.

19- قال سيدي الإمام أحمد الرفاعي رضي الله عنه: (هذا العلمُ الذي سَـمَّاهُ بعضُهم علمَ الباطن – التصوف – هو إصلاح القلب، فالأول - علم الفقه- عملٌ بالأركانِ وتصديقٌ بالجَنان أي القلب، إذا انفردَ قلبُك بحُسنِ نِيَّتِه وطهارةِ جوهَرِه، ثم قتلْتَ وسرقْتَ وزنَيْتَ وأكلتَ الرِّبا وكَذَبْتَ وتَكَبَّـرتَ وأغلظْتَ القولَ، فما الفائدةُ من حُسنِ نِيَّتِك وطهارةِ قلبِك؟؟!!

وإذا عَبَدْتَ اللهَ تعالى بكلِّ جوارِحك، وصُمْتَ وتصدَّقْتَ، وتواضعْتَ، ثم في قلبك الرياءُ والفسادُ والحَسَدُ والحِقْدُ، فما الفائدةُ من عَمَلِك؟؟) البرهانُ المؤيَّد.

20- وقال أيضًا: أقرب الطرق الانكسار والذل والافتقار، تعظِّمُ أمرَ الله، وتُشفقُ على خلق الله، وتقتدي بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. سير أعلام النبلاء للذهبي.

21- يقول الإمام الشعراني رحمه الله تعالى: (إن طريقَ القوم (الصوفية) محرَّرَةٌ على الكتاب والسنةِ كتحريرِ الذهبِ والجوهرِ، ومَبنيةٌ على سلوكِ أخلاقِ الأنبياءِ والأصفياءِ، فيَحتاجُ سالِكُها إلى ميزانٍ شرعيٍّ في كلِّ حركةٍ وسكونٍ، فمَنْ دقَّقَ النظرَ عَلِمَ أنه لا يخرُجُ من علومِ أهلِ الله شيءٌ عن الشريعة، كيفَ تخرجُ علومُهم عن الشريعة، والشريعةُ هي التي أوصلَتْهم إلى الله عزَّ وجلَّ في كلِّ لحظة؟!!) لطائف المِنن والأخلاق.

22- قال الإمام الغزالي رضي الله عنه في رسالة (أيها الولد): أيها الولد.... اعلم أنه يجب على السالك- الصوفي- أربعة أمور:

أول الأمر: اعتقادٌ صحيح لا يكون فيه بدعة.
والثاني: توبة نصوح لا يرجع بعدها إلى الزلة.
والثالث: استرضاء الخصوم حتى لا يبقى لأحد عليك حقٌّ.

والرابع: تحصيل علم الشريعة قَدْرَ ما تؤدي به أوامر الله تعالى، ثم من علوم الآخرة ما يكون به النجاة.

23- سئل خادم أبي بكرٍ الشبلي رضي الله عنه: ماذا رأيتَ منه عند موته؟ فقال: لما أمسك لسانه وعرق جبينه أشار إلي أن وضِّئْني للصلاة، فنسيتُ تخليل لحيته، فقبضَ على يدي وأدخل أصابعي في لحيته يُخلِّلُها. عوارف المعارف.

24- وحُكي أن أبا يزيد البسطامي رحمه الله قال ذات يومٍ لبعض أصحابه: قمْ بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذي شهر نفسه بالولاية – وكان الرجل في بلدته مقصودًا ومشهورًا بالزهد والعبادة – فمضينا إليه، فلما خرج الرجل من بيته إلى المسجد رمى بزاقةً نحو القِبلة، فقال أبو يزيد: انصرفوا، فانصرف ولم يسلم عليه، وقال: هذا رجلٌ ليس بمأمونٍ على أدبٍ من آداب رسول الله، فكيف يكون مأمونًا على ما يدعيه من مقامات الأولياء والصديقين؟!!!. عوارف المعارف للسهروردي.

25- قال الحافظ أبو سعيد النقاش في كتابه (طبقات الصوفية): متى رأيتَ الصوفيَّ مكبًّا على الحديث فثقْ به، ومتى رأيته نائيًا أي بعيدًا عن الحديث فلا تفرحْ به. سير أعلام النبلاء للذهبي.

26- قال أبو حفص النيسابوري[9] الإمام الرباني: مَن لم يَزِنْ أحواله في كلِّ وقتٍ بالكتاب والسنة ولم يتَّهم خواطره، فلا تعُدَّه. سير أعلام النبلاء.

أي فلا تعتدَّ به ولا تُقِمْ له وزنًا لأنه مغرورٌ بنفسه، وجاهلٌ بأصل التصوف.

27- قال الإمام المحدِّث القدوة الحافظ شيخ الإسلام ابن الأعرابي البصري الصوفي: والعالِم إذا عَرِيَ من التصوف فهو فارغٌ، كما أن الصوفي إذا عري من عِلم السنة زلَّ عن سواء السبيل. سير أعلام النبلاء.

وكان ابن الأعرابي هذا لا يقبل شيئًا من اصطلاحات الصوفية إلا بحجة.

28- قال الإمام المحدِّث شيخ الصوفية أبو القاسم النصراباذي: أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة، وترك الأهواء والبدع، ورؤية أعذار الخلق، والمداومة على الأوراد، وترك الرخص.

[وقال مثله شيخ الصوفية أبو عبد الرحمن السُلَمي]. سير أعلام النبلاء.

وترك تتبُّعِ الرُّخَص يقصد تركها اتباعًا لحظ النفس وهواها، أما إتيان الرُّخَص عند الاضطرار فلا بأس به لأن الله يحبُّ أن تؤتى رخصُه.

---

9 هو أول من أدخل التصوف إلى نيسابور وكان مشهورًا بالزهد والعلم.

ويمكننا أن نوجز هذه الضوابط بتوفيق الله تعالى فيما يلي:

1- اعتقادُ عقيدةِ التوحيدِ الخالِصِ كما كان عليه السلفُ الصالحُ.

2- الاتِّباعُ الكاملُ لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم في أفعالِه وأخلاقِه وأحوالِه، وهذا يقتضي العلم بالسنة ولو إجمالًا.

3- اجتنابُ المنْهياتِ وفعلُ المأموراتِ.

4- الأخذُ بالعزائمِ وتركُ الرُّخَصِ.

5- التخلُّقُ بالأخلاقِ النَّبَويَّةِ.

6- الزهدُ في الدنيا بالمعنى الصحيحِ عند أهلِ التصوفِ.

تنبيه:

يتبين لك أخي المسلم من خلال هذه الأقوال أمورٌ:

1- لا يصحُّ لغير السالك في طريقِ الصوفيةِ أن يقرأَ كُتُبَهم خشيةَ أن يَفْهَمَها على غير حقيقتِها وعلى عكْسِ ما يريدُ مؤلفُوها، لأنه بعيدٌ عن فهمِ اصطلاحاتِـهم. ومن المفيد أن نعلمَ أنَّ كُتُبَ التصوفِ تنقسمُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ:

القسمُ الأوَّلُ: يبحثُ عن تصحيحِ العباداتِ، وحُسنِ إقامتِها بصورتِها الظاهرةِ مع روحِها من الخشوعِ والحضورِ فيها معَ الله تعالى معَ مُراعاةِ آدابِـها الظاهرةِ.

القسمُ الثاني: يبحثُ عن مجاهَدَةِ النفسِ وتصفيتِها، والقلبِ وأحوالِه من تخلِيَتِه عن صفاتِ النقْصِ كالوَسَاوِسِ والرياءِ والحِقْدِ والحَسَدِ وغيرِها من الصفاتِ المذمومةِ، وتحلِيَتِه بالصفاتِ الكاملةِ كالتوبةِ والتَّوَكُّلِ والتسليمِ والصبرِ وغيرِها منَ الصفاتِ المحمودةِ.

القسمُ الثالثُ: يبحثُ عنِ المعارفِ الربانيةِ والعلومِ الإلهيةِ الوَهبيةِ والأَذْواقِ الوُجْدانيةِ والحقائِقِ الكَشْفيةِ، والتي يَتَوَقَّفُ فهمُها على الذَّوْقِ، وليسَ مُجَرَّدِ فَهْمِ ظواهرِها، وهذه الكتب يحذِّرُ أهلُ التصوفِ من قراءتِها لغيرِ السالِكين العارِفين من الصوفيةِ، ولا يقرؤها الصوفي إلا بعد إذنٍ صحيحٍ صريحٍ من شيخه.

2- إن التصوفَ لا يُنالُ بقراءةِ الكُتُبِ ولا بمعرفةِ معنى الاصطلاحات وفهمِها فقط، بل لا بُدَّ منَ السلوكِ معَ رجالِه والأخْذِ عن أهلِه والتعلُّمِ منهُم.

قال الإمام الشعراني: (سمعتُ سيدي عليًا الخوَّاص رضي الله عنه يقول: إياكَ أنْ تعتقِدَ يا أخي إذا طالعتَ كُتُبَ القومِ وعرفتَ مصطلحاتِـهم أنَّكَ صِرْتَ صوفيًا، إنما التصوفُ التخلُّقُ بأخلاقِهم ومعرفةُ طُرُقِ استنباطِهم لجميعِ الآدابِ والأخلاقِ التي تحلَّوا بها من الكتابِ والسنةِ) لطائف المِنن والأخلاق.
كما إذا قرأ شخص مصطلحات الطب وفهِمَها وحفظها، فلا يكون طبيبًا بمجرد ذلك، ولا نسلِّم له أبداننا.

3- إنَّ السادةَ الصوفيةَ إنما وضعُوا هذه الرموزَ والإشاراتِ كي لا يأخُذَ علمَهم إلا مَن سارَ في طريقِهم وفهِمَ رموزَهم، وقد بيَّنَّا أنَّ التصوفَ لا يُنال بقراءةِ الأوراقِ بل بصُحبةِ أهلِ الأذْواقِ.

4- إنَّ النصوصَ التي فيها الكُفْرُ والزَّيغُ والمروقُ منَ الدينِ هي مدسوسةٌ على القوم حَتْمًا، لِما رأيْتَ مِن تمسُّكِهم بالكتابِ والسنةِ كما مرَّ معك من أقوالِهم.

وإنَّ ما ثَبَتَ عنهم وهو مُشْكِلٌ ويُمْكِنُ فَهمُه على معنًى حَسَنٍ، وَجَبَ تأويلُه، لأنَّ عقيدتَهم هي عقيدةُ أهلِ السنةِ والجماعةِ التي يذكرُونَها دائِمًا في مقدمة كُتُبِهم، وانظرْ مقدمةَ الرسالةِ القُشَيرية ومقدمةَ الفتوحاتِ المكيةِ ومقدمةَ إحياءِ علومِ الدينِ، ومقدمةَ التعرُّفِ لمذهَبِ أهلِ التصوفِ.

وما نُقِلَ عنهم وثبتَ عنهم أنهم قالوه مما لا يُمْكنُ تأويلُه وفهمُه على معنًى صحيحٍ، فهو مردودٌ على قائلِه ومعتقِدِه، فلا نُسَلِّمُ له، وطالما أنه ثبت عنه بحالة صحو وعقل فنحكم على حسب الظاهر لأننا مأمورون بالأخذ بالظاهر ثم علمه عند الله تعالى، أما إن كان تاب بعد ذلك ونحن لا نعلم أو قال ذلك في حالة الغَيبة أو سهوًا فلا شيءَ عليه، إلا إذا علمنا منه التوبة أو أنه اشتُهر بالصلاح مع حصول الغَيبة له، عندها نتراجع عن الحكم عليه بالكفر أو البدعة، ويبقى حكم التكفير على معتقِد هذا الكلام المخرج من الملة ولا تأويل له. وما له تأويل أوَّلناه.

موقفُ السلَفِ الصالِحِ من التصوف

لما كانَ التصوف مَحَلَّ إجماعٍ بين العلماءِ، ولكنْ تحتَ اصطلاحاتٍ ومُسمَّياتٍ مختلفة، فلا داعي لذكرِ أقوالِهم فيه، ولكن نذكُرُ رأيَ أئمةِ علماءِ السلَف في التصوف، وخصوصًا الأئمة الأربعة رضي الله عنهم الذين حفظَ اللهُ بهم دينَه، ليتـثَبَّتَ المتشَكِّكُ ويطمَئِنَّ الخائفُ من الخروجِ عن الصراطِ المستقيمِ.

1- الإمام أبو حنيفة النعمان رضي الله عنه:

نقلَ الإمام الفقيه الحصكفي صاحب كتاب الدر المختار: (أن أبا عليٍّ الدقاق رضي الله عنه قال: أنا أخذتُ الطريقةَ من أبي القاسم النصراباذي، وقال أبو القاسم وأنا أخذتُها من أبي بكرٍ الشبلي وهو من السَّري السقَطي وهو من معروفٍ الكرخي وهو من داود الطائي وهو أخذَ العِلم والطريقة من أبي حنيفةَ رضي الله عنه وكلٌّ – كلٌّ واحدٍ – أثنى عليه – على أبي حنيفة- وأقرَّ بفضلِه).

ثم قال صاحب الدر المختار معلِّقًا: فيا عجبًا لك يا أخي! ألم يكن لك أسوة حسنة في هؤلاء السادة الكبار؟ أكانوا متَّهمين في هذا الإقرار والافتخار، وهم أئمة هذه الطريقة وأرباب الشريعة والحقيقة؟ ومَن بعدهم في هذا فَهُمْ لهم تَبَعٌ، وكلٌّ ما خالف ما اعتمدوه مردود مبتدَعٌ.

قال ابن عابدين في حاشيته المشهورة معلِّقًا على هذا الكلام: هو –أبو حنيفة- فارسُ هذا الميدان، فإن مبنى علم الحقيقة على العلم والعمل وتصفية النفس، وقد وصفه بذلك عامة السلف، قال الإمام أحمد بن حنبل في أبي حنيفة رضي الله عنهما: إنه كان من العلم والورعِ والزهد وإيثار الآخرة بمَحَلٍّ لا يدرِكُه أحد، ولقد ضُربَ بالسياط ليَليَ القضاء فلم يفعلْ.

قال الإمام عبد الله بن المبارك رحمه الله: ليس أحدٌ أحقُّ أن يُقتدى به من أبي حنيفةَ لأنه كان إمامًا تقيًا وَرِعًا فقيهًا، كشفَ العلمَ كشفًا لم يكشِفْه أحدٌ ببصرٍ وفهمٍ وفِطنة وتقى.

وجاء رجلٌ إلى سفيان الثوري رحمه الله وقال له: جئتُ من عند أبي حنيفة، فقال سفيان: لقد جئتَ من عند أعبدِ أهلِ الأرض.

ومن المعلوم أن أبا حنيفة رضي الله عنه كان يجالس شيبان الراعي[10] ويستفيد منه.

2- الإمام مالك رضي الله عنه:

قال الإمام مالك رضي الله عنه: لولا أبو هاشمٍ الصوفي ما عرفتُ الرياء. وفي هذا القول إقرارٌ بطريق الصوفية في تطهير الباطن من الرذائل.

يقول الإمام مالكٌ: (مَن تفقَّهَ ولم يتصوفْ فقد تفسَّقَ، ومَن تصوفَ ولم يتفقَّهْ فقد تزندَقَ، ومَن جمعَ بينهما فقد تحقَّقَ). وهذا القول ثابتٌ عن الإمام من المصادر الموثوقة في مذهب الإمام مالك.

فنفهمُ منطقيًا أن الإمام مالكًا هو رجلٌ من ثلاث:

إما أن يكون فقيهًا غيرَ صوفي فيكون فاسقًا، وهذا لا يقول به أحد وحاشاه.

وإما أن يكون صوفيًا غيرَ فقيه فهذا باطلٌ لأن المعروف أنه صاحب مذهب في الفقه، أو أنه يكون زنديقًا وحاشاه ولا يقولُ به أحدٌ.

فيبقى الاحتمال الثالث أن يكون محقِّقًا، وعلى هذا إجماع الأمة، فكان فقيهًا صوفيًا رحمه الله تعالى ورضي عنه.

وقال الشيخ محمد بن قاسم بن جَسُّوس في شرحه على الشمائل: (وقد كان إمامُنا مالكٌ يأتي محمدَ بنَ المنكدر[11]).

قال الإمام سُحنون رحمه الله تعالى: وبلغ شيوخ الإمام مالك تسعُمِئة شيخ: ثلاثُمئة من التابعين، وستمئة من تابعيهم ممن اختاره لدينه وفقهه وتيقُّظِه، ولزمَ ابنَ هرمز

---

910 شيبان الراعي كان رفيقًا لسفيان الثوري، وكان رضي الله عنه أميًا، ومع ذلك إذا سئل عن شيءٍ من الفقه أجاب عنه بأحسن جواب، مات بمصر وقبره بجانب قبر الإمام الشافعي رضي الله عنهما. ومن كراماته أنه إذا ذهب لصلاة الجمعة خطَّ على غنمه خطًّا وذهب، فلا تتحرك الغنم ولا يعترضها وحشٌ ولا جنٌّ ولا إنس. وذكر الإمام السخاوي كرامته مع الأسد وأنه عرك له أذنه فطأطأ الأسد وحرك ذنبه كالكلب بين يديه ولم يؤذه.

11 10 قال الإمام الذهبي: محمد بن المنكدر هو الإمام الحافظ القدوة شيخ الإسلام أبو عبد الله القرشي التيمي، كان من سادات القراء ولا يتمالك نفسه عند قراءة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقول عن نفسه: كابدتُ أي جاهدتُ نفسي أربعين سنة حتى استقامتْ. وكان يضع خده على الأرض، ويقول لأمه: قومي ضعي قدمك على خدي (ليذلَّ نفسه التي يراها عاصية متبعة لشهواتها فيمارس عليها صوَرًا من الإذلال والافتقار، وليكتسب هاتين الصفتين حقيقة) قال ابن الماجشون: إن رؤية محمد بن المنكدر لتنفعني في ديني. مات رضي الله عنه سنة 130 هـ. وبالجملة فأخباره كثيرة ومناقبه شهيرة.

رحمه الله ثلاث عشر سنة، وظلَّ يروي ستَّ عشرة سنة من الصباح إلى الزوال في علمٍ قال مالك لم أبثَّه إلى أحد.

وقال الشاطبي في الموافقات: وأخبر مالكٌ عن نفسه أنه عنده أحاديث وعلوم ما تكلَّم فيها ولا حدَّثَ بها.

وما هذا إلا علم القلوب والتكلم في أسرار ودقائق علم التصوف، وهذا مصداقًا للحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: (حفظتُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين من العلم، أما الأول فقد بَثَثْتُه فيكم، وأما الآخَر فلو بَثَثْتُه لقطعتُم مني هذا البُلعوم) رواه البخاري.

3- الإمام الشافعي رضي الله عنه:

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: (صحبتُ الصوفية عشرَ سنين فلم أستفدْ منهم سوى حرفين، وفي رواية سوى ثلاث كلماتٍ، قولُهم: الوقتُ كالسيف إن لم تقْطَعْه قَطَعَك، وقولهم: نفسُك إن لم تَشْغَلْها بالحقِّ شَغَلَتْك بالباطل، وقولهم: العدم عِصمة) ذكره النووي وغيره.

تنبيه: قولُ الإمام الشافعي (فلم أستفد منهم سوى ثلاث كلماتٍ) هذا لا يعني أن الصوفية ليس فيها حَسَنٌ إلا هذه الثلاثة، وإنما الشافعي استفاد منهم ما لم يكنْ عنده أو استفاد منهم التمكُّنَ في التخلُّقِ بهذه الأخلاق، هذا مع اعتقادنا أن الإمام الشافعي كان من أكابر أهل العصر، وفريد الدهر علمًا وعملًا وإخلاصًا ووَرَعًا واجتهادًا في طلب رضا الله سبحانه.

وقال أيضًا: (حُبِّبَ إليَّ من دنياكم ثلاث: تركُ التكلُّف، وعِشرةُ الخَلقِ بالتلطُّفِ، والاقتداء بطريق أهلِ التصوف) كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلوني.

قال جَسُّوس في شرح الشمائل: وكان الإمام الشافعي يجلسُ بين يدي شيبان الراعي كما يقعُد الصبيُّ في المكتب.

وكان الشعراني يقول: كفى مدحًا للصوفية إذعان الشافعي لشيبان الراعي.

وقال الشعراني: كثيرًا ما كان الإمام الشافعي يوصي الإمامَ أحمدًا باحترامهم ومجالسَتهم أيضًا، وكانا يحضُران في مجالسِ ذكرهم، فقيل لهما: ما لكما تتردَّدان إلى هؤلاء؟ فقالا لهم: هؤلاء عندهم رأس الأمر كله وهو تقوى الله ومحبته.

وهذا من تواضعهما وإلا فهُما من أكمل الناس تقًى وصلاحًا رضي الله عنهما.

4- الإمام أحمد رضي الله عنه:

كان الإمام أحمد رضي الله عنه قبل مصاحبته للصوفية يقول لولده عبد الله رحمه الله تعالى: (يا ولدي عليك بالحديث، وإياك ومصاحبة هؤلاء الذين سمَّوا أنفسَهم صوفية، فإنهم ربما كان أحدُهم جاهلًا بدينه)، فلما صحبَ أبا حمزة البغدادي الصوفي[12] وعرف أحوالَ القوم، صار يقول لولده: (يا ولدي عليك بمجالسة هؤلاء القوم، فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة والخشية والزهد وعلوِّ الهِمة) تنوير القلوب للكردي.

وكان شيخ الإسلام زكريا الأنصاري يقول: يكفينا شرفًا في طريق القوم أن الإمام أحمدَ بنَ حنبل كان إذا توقَّفَ في مسألةٍ يسألُ عنها الشيخَ أبا حمزةَ البغدادي ويقول له: ما تقول في هذه المسألة يا صوفي؟ فإذا أجابه وأزال إشكالَ تلك المسألة تعجَّبَ الإمام أحمد من ذلك.

قال جَسُّوس في شرح الشمائل: وكان الإمام أحمد بن حنبل ويحيى بن معين يختلفان إلى معروف الكرخي[13] ولم يكن في علمِ الظاهر بمنزلتهما.

ونقل العلامة محمد السفاريني الحنبلي عن إبراهيم بن عبد الله القلانسي أن الإمام أحمدًا قال عن الصوفية: لا أعلمُ أقوامًا أفضل منهم، قيل إنهم يستمعون ويتواجدون فقال: دعوهم يفرحوا مع الله ساعةً. غذاء الألباب شرح منظومة الآداب.

قال الإمام الشعراني: ولا يقول عاقلٌ إن مثلَ الإمام أبي حنيفة أو مالك أو الشافعي أو أحمد رضي الله عنهم يعلمُ أحدهم من نفسه رياءً أو عُجبًا أو كِبرًا أو حَسَدًا أو نفاقًا ثم لا يجاهد نفسه ولا يناقشها. لطائف المِنن والأخلاق.

كيف يتركون محاسبةَ أنفسهم وتطهيرَها وهم الحريصون على رضا الله تعالى ولا يرضى الله إلا عن كلِّ قلبٍ سليمٍ، ولكنهم لما علموا صفاء نفوسهم وقلوبهم عن مثل هذه المعاصي اشتغلوا بعلوم الشريعة الظاهرة.

---

12 أبو حمزة البغدادي، قال الذهبي: شيخ الشيوخ، أبو حمزة محمد بن إبراهيم، صحب السري السقطي وبشرًا الحافي، وكان يتكلم ببغداد في مسجد الرصافة، قبل كلامه في مسجد المدينة، وكان عالمًا بالقراءات، وتكلم يومًا في جامع المدينة، فخشع وتغيَّر عليه حاله فسقط عن كرسيه، ومات في الجمعة التي بعدها. له ترجمات كثيرة وأقوال في الأذواق فائقة منشورة في بطون الكتب في تراجم الصالحين.من كلامه: إذا فتح الله عليك طريقًا من طُرُقِ الخير فالزمْه، وإياك أن تنظر إليه، وتفتخر به، ولكن اشتغلْ بشكر مَن وفَّقك لذلك، فإنَّ نظرَك إليه يُسقطُك عن مقامك، واشتغالك بالشكر يوجب لك منه المزيد، لان الله تعالى يقول لئن شكرتم لأزيدنكم.

13 معروف الكرخي: هو علَمُ الزهاد وبركة العصر، من جلة المشايخ المعروفين بالورع والتقوى والفتوة، سمع الحديث وأسنده. كان نصرانيًا فأسلم على يدي الإمام السيد علي بن موسى الرضا رضي الله عنه، روى الخطيب البغدادي في تاريخه وأبو يعلى في طبقاته أن معروفًا ذُكر أمام الإمام أحمد، فقال أحدهم: إنه قصير العلم، فقال الإمام أحمد: أمسكْ، وهل يُراد من العلم إلا ما وصل إليه معروف؟!! وذكروا أيضًا أن جماعة من العلماء والأكابر كان يغشَون (يزورونه) ويتبرَّكون بزيارته، منهم الإمام أحمد. وذكر الإمام الحافظ إبراهيم الحربي أن (قبر معروف الكرخي هو الترياق المجرَّب) أي الدواء المجرَّب أي أن الدعاء عند قبره والتوسل به هناك دواء لكل سؤال والدعاء عند قبره مستجاب. وأُثر عنه صيام الدهر، وكان يقول: إذا أراد الله بعبدٍ خيرًا فتح عليه باب العمل، وأغلق عنه باب الفترة والكسل. توفي سنة 200 هـ. رضي الله عنه وعنا به.

قال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري: كلُّ فقيهٍ لا يجتمعُ بالصوفية فهو كالخبز الجاف بلا إدام، لأن العلم رياسةٌ عظيمةٌ، وللنفس فيها دسائس (ووساوس خفية كحب الجاه والشهرة والرياء)، فربما خَفِيَتْ على العلماء قبل الطلبة.

قال ابن حجر: فلْيتَّخِذْ ثقةً وحجةً، ولا يَلتفِت إلى مَن يتعصَّب، فليتحرَّ أورعَ المشايخ وأعرفَهم بقوانين الشريعة والحقيقة.

5- الإمام الحسن البصري رضي الله عنه:

اتفق أكثرُ المحقِّقين من مؤرِّخي الإسلام ومؤرِّخي التصوف أن الحسن البصري هو أول مَن فتح الكلام في علمِ ومذهبِ أهلِ التصوف، وأول مَن تصدَّرَ لنشرِ تعاليمِه وأفكارِه.

قال العلامة ابن الحاج في كتابه (المدخَل): إن الحسن البصري هو أول مَن فتح الكلام في طريق القوم، وقد قيل: إن المذهب –يقصد الصوفية- كانتْ تُعرَفُ رجالُه باسم المتصوفة من عهده، وكان الحسن يجلُّ ويحترمُ المنتمين لذلك الجَناب، ويشهد لهذا ما أخرجه أبو نصر الطوسي في كتاب (اللمع) قال حاكيًا عن الحسن أنه قال: رأيتُ صوفيًا في الطواف فأعطيتُه شيئًا فلم يأخذْه، وقال: معي أربعُ دوانيق فيكفيني ما معي.

وكان الحسن البصري يذكر ذلك على سبيل الإعجاب بحال ذلك الصوفي. وفي هذا دليلٌ على وجود مصطلَح وكلمة (التصوف) في عصر التابعين، وفيه مدحٌ للصوفية منه رضي الله عنه.

كيف لا وكثيرٌ من أسانيد الطريق الصوفي إلى عصرنا هذا تصل إلى الإمام الحسن البصري.

أكابر الأئمة كانوا من سادات التصوف:

في هذه الفقرة المهمة يظهر لك أخي القارئ أن التصوف لم يكن مختصًّا بفئة من المسلمين دون فئة، لذا سنذكر لك بعض أكابر علماء الأمة وأبطالها، الذين أوصلوا إلينا هذا الدين، إما بعلمهم أو بالدفاع عنه ضد مَن أراد حربَه.

وهؤلاء العلماء هم من الصوفية إما حبًّا وتقريرًا واعتقادًا، وإما بالانتساب إلى هذه المدرسة الصوفية والتتلمُذِ لرجالها.

ولو كان الصوفية أهلَ ضلالٍ وكفرٍ وزندقةٍ، لكان هذا الدين وصلَنا عن طريق ضالين أو كفارٍ كما يقولون، فكيف نَدين بدينٍ حملَه إلينا ودرَّسَه ضالين زائغين في اعتقادهم؟؟!!! والعياذ بالله تعالى.

لذا فإن مَن شكَّكَ بالعلماء على مر العصور فإنه يشكِّكُ بالدين، من حيث يشعر أو من حيث لا يشعر. ويضيق المقام لذكرِ كثيرٍ من العلماء، بل اقتصرنا على ذكر مَن كان لهم الدور البارز والشهرة بين المسلمين وأجمعتِ الأمة على فضلهم، فرحم الله الجميع وجزاهم عنا كلَّ خيرٍ.

1- سلطان العلماء العز ابن عبد السلام:

هو فقيه شافعي بلغ رتبة الاجتهاد، وبالجملة هو غنيٌّ عن التعريف، ويكفي أنه لُقِّبَ بـ(سلطان العلماء) و(بائع الأمراء)، صاحبَ قولة الحقِّ، لا يخشى إلا الله تعالى.

وشهرتُه عمَّتِ الآفاق عِلمًا وعملًا، وأما الجانب الصوفي في شخصيته فهو رحمه الله تعالى كان فقيهًا صوفيًا، ويظهر ذلك من كلام متَرجميه، ومن كتبه ككتاب (شجرة المعارف والأحوال) الذي اختصر فيه كتاب (الرعاية لحقوق الله) للحارث المحاسبي وهو كتاب مهم في علم التصوف.

وننبِّه إلى أن مثل هذا الإمام الكبير لم يُنكر على المحاسبي، فما بال مَن ينالُ من دين المحاسبي متَّهمًا إياه بالضلال والفسق، أين هذا المعترضُ من العز ابن عبد السلام ومن علمه وهو الذي لا يختلفُ اثنان على بحر علمه وفقهِه وتقواه.

وقد حكى السيوطي وتاج الدين السبكي أن العزَّ ابنَ عبد السلام لبسَ خِرقةَ التصوف من الشهاب عمر السهروردي صاحب كتاب عوارف المعارف.

وكان رضي الله عنه يحضُرُ مجالس الإمام أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه ويسمعُ كلامَه في علم الحقيقة وتتلمَذ عليه، وقد أثنى على الشيخ الأكبر ابن عربي رضي الله عنه قائلًا: لا أرى القطب في زماننا إلا هذا الشيخ.

وقد ذكر الذهبي أنه مع شِدَّتِه وصلابتِه في دينه كان حَسَنَ النوادر والمحاضَرة والأشعار، وكان يحضُرُ السماع ويُرخِّصُ فيه. (والمقصود بالسماع مجالسُ الصوفية للذكر والإنشاد).

ورُويتْ له كرامات، وتكلَّمَ في كتابه شجرة المعارف عن مقامات الطريق كالفناء والزهد والمحبة بلسان أهل التصوف، وهو الذي قال: (العارفون أفضل الخلقِ وأتقاهم لله تعالى، لأن العلم يَشرُفُ بشرف المعلوم وبثمراته، والعلم بالله وصفاتِه أشرف من العلم بكل معلوم، ولا شكَّ أن معرفة الأحكام لا تورثُ شيئًا من هذه الأحوال......... ومما يدلُّ على تفضيل العارفين بالله على الفقهاء – غير الصوفيين- ما يُجريه الله على أيديهم من كرامات، ولا يجري شيءٌ منها على أيدي الفقهاء، إلا أن يسلكوا طريق العارفين ويتَّصفوا بأوصافهم) انظر شجرة المعارف وكلامه يطول في التصوف.

رحمه الله تعالى وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيرَ الجزاء.

2- الإمام الموفَّق بن قدامة المقدسي الحنبلي:

الإمام العالِم الزاهد والمجاهد ضد الصليبيين، صاحب كتاب المغني وهو من أكبر المراجع في الفقه الحنبلي.

وقد كان للموفق وأخيه أبي عمر وتلاميذهما خيمةٌ ينتقلون بها مع المجاهدين في سبيل الله تعالى تحت لواء البطل صلاح الدين الأيوبي لقتال الصليبيين.

وقال الذهبي في ترجمته: (ارتحل ابن قدامة المقدسي إلى بغداد لطلب العلم فنزل عند الشيخ عبد القادر الجيلاني وسمع منه، وقد كان يقدم إلى العدو وجُرح..... وذكر له الضياء حكايات في كراماته) منها أنه مشى على الماء.

وقد لازم شيخَه الإمامَ الجيلاني لحين وفاته وأخذ منه الطريقة القادرية، وبعد وفاة الجيلاني عاد إلى دمشق، ويظهر اسمه واضحًا في بعضِ أسانيد الطريقة القادرية، كسَنَدِ ابن الملقِّن فهو يقول عن نفسه أنه لبس الخِرقة عن أبي بكر الحنبلي وهو عن شيخه إسحاق الواسطي، وهو عن الشيخ موفق الدين ابن قدامة المقدسي وهو عن القطب الشيخ عبد القادر الجيلاني.

وقال ابن كثير: وكانت له – لابن قدامة- أحوال وكرامات.

وابن قدامة هو الذي كتب مختصر منهاج القاصدين وهو من كتب الصوفية ونقل فيه قوله (كلُّ متجرِّدٍ لله في جهاد نفسه فهو شهيد).

وقال في كتابه (المغني) بجواز التبرُّك بالصالحين مطلقًا وبكُتُبهم، كما أباح قصر الصلاة لمَن سافر لزيارة القبور ولو كانت لغير قبر النبي صلى الله عليه وسلم.

وكذلك ذكر حديث النبي صلى الله عليه وسلم في الأبدال، وقال بجواز التوسل بالنبي الكريم، كما أنه كتب في التصوف.

قال سبط ابن الجوزي الحنبلي: (إن مَن رأى الموفَّقَ فكأنما رأى بعضَ الصحابة، وكأن النورَ يخرجُ من وجهه) رضي الله عنه ورحمه رحمة واسعة وجزاه عن المسلمين خير الجزاء.

3- الإمام شيخ الإسلام محيي الدين النووي:

هو الإمام الشهير والعالم الرباني يحيى بن شرف النووي الدمشقي، محرر مذهب الشافعي، الذي كان يصدح بالحق ولا يخاف لومة لائم، وكثيرًا ما حرَّضَ الظاهر بيبرس على الإسراع في ملاقاة التتار.

لقد نقلنا عنه رحمه الله تعالى ورضي عنه قوله عن التصوف في رسالته، قال: (أصول طريق التصوف: تقوى الله في السر والعلانية، واتباع السنة في الأقوال والأفعال، والإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار، والرضى عن الله في القليل والكثير، والرجوع إلى الله في السراء والضراء) من كتابه (المقاصد).

وقال أيضًا: (ومن أصول هذه الطريق علو الهمة، ونفوذ العزيمة، وصحبة المشايخ ومَن يدلك على الله تعالى، وترك الرخص للتحفظ، وضبط الأوراد للحضور، واتهام النفس في كل شيء للخروج من الهوى) من كتابه المقاصد.

هذه الأقوال كافية لتبين صلة الإمام النووي بالتصوف، بل وصل إلى مرحلة يتكلم فيها عن أصول علم التصوف ويؤسِّسُ لطريقهم.

ومما يدلك على دخوله طريق التصوف انتسابًا وإرشادًا، أنه قرأ رسالة القشيري (وهي من أهم المراجع في علم التصوف) على أحد شيوخه، وقرَّأها وأقرأها لتلاميذه، وكذلك قرأ كتاب صفة الصفوة في أخبار الصوفية على يد مشايخه ودرَّسه لطلابه.

وذكر العلماء ممن ترجم له أن الإمام النووي (كان يقتدي في التصوف بالشيخ المربي ياسين المراكشي ويستشيره في أموره ويجله إجلالا كبيرًا وكان يتأدب معه ويرجو بركته).

ومشايخه كُثُر منهم أبو إسحاق إبراهيم بن عيسى المرادي الإمام الحافظ المحقق الضابط الزاهد، كان بارعًا في معرفة علوم الحديث والفقه والتصوف وغيره.

وهل المحدثون والفقهاء إلا صوفية متحققون؟

قرأ الإمام النووي على شيخه هذا صحيحَ مسلم شرحًا وضبطًا، ومعظم صحيح البخاري كذلك.

ومن مشايخه الإمام الزاهد شيخ الإسلام إبراهيم بن علي الواسطي بركة الشام وقطب الوقت.

ودافع الإمام النووي عن الصوفية، وأيَّد رأيهم بأن الخضر عليه السلام حي إلى الآن.

وكان كثيرًا ما يثني على سيدنا الإمام عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه في كتبه، ومن المرجح أن النووي كان ينتسب إلى الطريقة القادرية.

وقد كتب تلميذه ابن العطار كتابًا في سيرته العاطرة، وكذلك السيوطي كَتَبَ (المنهاج السوي في ترجمة الإمام النووي) فانظرهما تجد العجب من مجاهدة النفس وتربيتها، ورَوَوا له الكثير من الكرامات رضي الله عنه ونفعنا به.

وأفاد العلماء أن النووي كان يقتدي في تصوفه بالشيخ المرشد الكبير ياسين المراكشي ويستشيره في أموره ويتبرَّك به، ولا نستبعد أن يكون أخذ الطريقة القادرية لأنه يذكر الشيخَ الجيلاني كثيرًا في كتبه ويثني عليه.

ومَن يقرأ للنووي يلمح جانب التصوف في تآليفه وخاصة كتبه (الأذكار، ورياض الصالحين، وبستان العارفين) ووِرده المشهور، ومما يُعرَفُ عنه أنه شدَّ الرحال لزيارة قبر الإمام الشافعي.

قال عنه تاج الدين السبكي: الشيخ الإمام، شيخُ الإسلام، أستاذ المتأخرين، حجة الله على اللاحقين، ما رأتِ الأعينُ أزهد منه، ولا عاينتْ أكثر اتباعًا منه لطرق السالفين من أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .... قطب زمانه، وسيد وقته، وسرُّ الله بين خلقه، وكراماته مشهورة.

ويكفيه فخرًا كتابه (رياض الصالحين) و(الأذكار) ...... فبركتهما مشهورة معروفة لكل الناس بفضل إخلاصه فيهما، وهذان الكتابان يصلحان للسلوك القويم الذي لا يحيد عن الشريعة شعرة.

4- الإمام الشاطبي:

قال في كتابه الاعتصام في الجزء الأول ما نصُّه: وأما الكلام في دقائق التصوف فليس ببدعةٍ بإطلاق، ولا هو مما صحَّ الدليل فيه بإطلاق، بل الأمر ينقسم، ولفظ التصوف لا بدَّ من شرحه أولًا، حتى يقعَ الحكم على أمرٍ مفهوم .... وحاصلُ ما يرجعُ فيه لفظُ التصوف عندهم معنيان :

أحدهما: التخلُّقُ بكلِّ خُلُقٍ سنيٍّ، والتجرُّد عن كلِّ خُلُقٍ رديٍّ.

والآخَر: أنه الفناء عن نفسه والبقاء بربه، وهما في التحقيق بمعنًى واحدٍ، إلا أن أحدهما (الفناء عن نفسه) يصلُح التعبير به عن البداية، والآخَرُ (البقاء بربِّه) يَصلُح التعبير به عن النهاية، وكلاهما إنصاف......

وقد يُعبَّر فيهما بلفظٍ آخَر، وإذا كان هذا، فالتصوف بالمعنى الأول لا بدعة في الكلام فيه، لأنه إنما يرجعُ إلى تفقُّهٍ ينبني عليه العمل، وتفصيل آفاته وعوارضِه وأوجه تلافي الفساد الواقع فيه بالإصلاح، وهو (التصوف بالمعنى الأول) فقهٌ صحيحٌ وأصوله في الكتاب والسنة ظاهرة، فلا يقال في مثلها في السلف الصالح بدعة، وليس من شأن العلماء إطلاق البدع على الفروع المستنبطة التي لم تكن فيما سلف، وإن دقَّتْ مسائلها، فكذلك لا يُطلَقُ على دقائق فروع الأخلاق الظاهرة والباطنة إنها بدعة، لأن الجميع يرجعُ إلى أصولٍ شرعية.

وأما بالمعنى الثاني (الفناء عن نفسه والبقاء بربِّه) فهو على أضرُبٍ (أنواع)، ثم فصَّلَ فيها القول، فراجعْ بقية كلامه، وهو كلامٌ منصف[14].

5- محمد الثاني (الفاتح) فاتح القسطنطينية:

14 انظر نقل غالب كلام الشاطبي في آخر الكتاب.

يُعَدُّ محمد الفاتح من أعظم سلاطين زمانه علمًا وتهذيبًا، وأشدِّهم بأسًا وجهادًا، وأكثرهم توكُّلًا على الله تعالى واعتمادًا، وهو الذي شهد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح (لتفتحنَّ القسطنطينية، فنِعمَ الأميرُ أميرُها ونِعمَ الجيشُ جيشُها) الجامع الصغير للسيوطي.

وفي هذا الحديث مدحٌ ضمنيٌّ باطنٌ للعقيدة التي يعتقدها محمد الفاتح وللمذهب الذي يتبعُه (كان أشعري الاعتقاد، شافعي المذهب)، فالنبي لا يمدح فاسد الاعتقاد والمبتدع، فهيا لنعرفَ ما الذي كان عليه هذا القائد.

قد أجمع المؤرِّخون على الناحية الصوفية الحاضرة في حياة محمد الفاتح، وكان شيخه الصوفي هو الطبيب العالِم محمد بن حمزة الملقَّب آق شمس الدين الذي أدخله الخلوة ولقَّنه الأوراد.

والحكاية الواردة في كتاب أخبار الدول للقرماني، والبدر الطالع في محاسن ما بعد القرن السابع للشوكاني وغيرها توضِّح ذلك:

ومن مشايخ الطريقة في زمانه الشيخ العارف بالله، الواصل إلى الله آق شمس الدين..... لما أراد السلطان محمد خان فتْحَ القسطنطينية أرسلَ وزيرَه إلى الشيخ المذكور يدعوه إلى الجهاد وإلى الحضور معه في فتح المدينة العظيمة، فحضرَ وبشَّرَ بالنصر، وقال الشيخ: ستُفتح القسطنطينية إن شاء الله تعالى على يد المسلمين هذا العام في اليوم الفلاني من ناحية القلعة، وكان محمد الفاتح يعتقد بالشيخ ويتبرَّك به.

فبشَّرَ الوزيرُ السلطانَ الفاتحَ بما بشَّرَ به الشيخ، فلما صار الوقت الموعود ولم تُفتحِ القلعة، ذهبَ الوزيرُ إلى الشيخ ليستفسر، فوجده ساجدًا على التراب في خيمته المنصوبة في ساحة المعركة وهو يتضرَّعُ ويبكي، ثم قام وكبَّرَ وقال: الحمد لله الذي منحَنا فتحَ هذه المدينة.

قال الوزير: فنظرتُ إلى جانب المدينة فإذا العسكرُ قد دخلَ بأجمعه، ففتح الله ببركة دعائه في ذلك الوقت، وكانتْ دعوتُه تخرقُ السبعَ الطباق، وقال السلطان محمد الفاتح كلمتَه المشهورة:(ما فرحتُ بهذا الفتح، وإنما فرحي بوجود مثل هذا الرجل في زماني).

ثم بعد يوم جاء السلطان الفاتح إلى خيمة الشيخ آق شمس الدين وهو مضطجعٌ وقبَّلَ يده، وقال له: جئتُك لحاجةٍ عندك، قال الشيخ: ما هي؟ قال السلطان: أريد أن أدخلَ الخلوة عندك أيامًا، فقرأ الشيخُ عليه الأوراد والسلطان جالسٌ أمامه على رُكبتيه يستمع الأوراد، فلما أتمَّها التمسَ السلطان الفاتح من الشيخ أن يُعيِّنَ له قبرَ أبي أيوب الأنصاري (الصحابي الذي استشهد على أبواب القسطنطينية)، فقال الشيخ آق شمس الدين: التقتْ روحي مع روحه، وهنَّأني بهذا الفتح، ثم سار الشيخُ إلى منطقة وقال إني أشاهد في هذا الموضع نورًا، لعلَّ قبرَه هنا، فاحفروا مقدار ذراعين من جانب الرأس من القبر، فحفروا في الموضع الذي أشار إليه الشيخ، فظهرَ رُخامٌ عليه خطٌّ فقرأه مَن يعرفه وفسَّره فإذا هو ما قرَّرَه الشيخ أنه قبر أبي

أيوب الأنصاري رضي الله عنه، فغلبَ على السلطان حالٌ وكاد أن يسقطَ لولا أن أخذوه.

ثم أمر ببناء مسجدٍ وقبةٍ على قبر الصحابي الجليل، كما بنى بجانبها زاوية لتوزيع الطعام، وزاوية للفقراء الصوفية.

وكان الجيش العثماني يضمُّ عددًا كبيرًا من المشايخ، من بينهم أتباع الطرق الصوفية يقوُّون روح الجهاد والحماس في الجنود، وكان السلطان الفاتح قد استصحبهم على عمدٍ لا لاستغلالهم بالحربِ فقط بل في سبيل إنهاض القوة المعنوية للجنود وتبرُّكًا بهم وبصحبتهم.

ومن الحَسَنِ أن نذكرَ أن السلطان الفاتح أمر الجُندَ بالصيام قبل يوم المعركة تطهيرًا لنفوسهم وتقوية لعزائمهم، فأفطروا عشية الفتح، وأمرهم بالإكثار من الصلاة وذكر الله والدعاء ذلك اليوم وتلك الليلة، وبعد الإفطار وفي الليل دُقَّتِ الطبول وبدأ الجنود والفقراء والصوفية يذكرون الله قيامًا.

وقد عدَّ المؤرِّخون فتح القسطنطينية حَدَثًا عظيمًا هزَّ أوروبا بأكملها، لأن هذا الفتحَ كان نهاية العصر الوسيط وبداية العصر الحديث.

وكانتِ القسطنطينية قد حوصرتْ منذ فجر الإسلام عشرَ مراتٍ واستعصتْ على المسلمين.

كان السلطان الفاتح يعيش حياةً بسيطةً مع الزهد والانصراف عن الشهوات مع قوة في الدين وعطاءٍ وكَرَم، قال عنه الإمام السخاوي رحمه الله: كان ملِكًا عظيمًا، زاحمَ العلماء ورغب في لقائهم، وتعظيم مَن يَرِدُ عليه منهم، وله مآثر كثيرة من مدارسَ وزوايا وجوامع. وكان يحبُّ الصوفية ويقَدِّمُهم عنده ويعتقد بهم، وهو منهم، فكان يرسلُ إلى خواجه جيهان رضي الله عنه (من كبار صوفية الهند من الطريقة النقشبندية) ألف دوقية كلَّ عام، ويرسل دعوةً للشاعر الصوفي مولانا نور الدين عبد الرحمن الجامي رضي الله عنه لزيارة استانبول، وكذلك قصد السلطانُ الشيخَ أبا الوفا رضي الله عنه الجامعَ للعلوم الظاهرة والباطنة في مصر، وكان يُجلُّ الشيخَ محمدَ بنَ قطب الأزنيقي صاحب رسالة (شرح سبحانك ما عرفناك حقَّ معرفتك).

وكان يعتقد ويحترم الشيخَ ابنَ الأعرابي الخلوتي رضي الله عنه الذي صار مفتيًا فيما بعد لدار الخلافة الإسلامية.

وبالجملة فإن التصوفَ في عصره كان في غاية رُقِيِّه وعلى سبيل الحق من قيادة للدين والدنيا، لأنه كان تصوفَ حقٍّ مبنيٍّ على علمٍ دقيق وعملٍ خالصٍ لله تعالى.

وكان آق شمس الدين شيخه من أشهر هؤلاء الصوفية، والكتب التركية تقول عن الشيخ أنه كان هو الفاتح المعنوي لاستانبول.

وبعد هذا كلِّه، إن السلطان محمدًا الفاتح الذي فتح البلاد وانطبق عليه الحديث كما قال علماؤنا، وفي هذا الحديث مدحه النبي، فهل يُعقلُ أن يكون ضالًا أو فاسقًا وزائغَ العقيدة؟!!

هل يمدح النبي ضالًا أو منحرفًا في العقائد؟؟!!

والجواب معلوم، الصحيح أن مدحَ النبي للفاتح مدحٌ له وللعقيدة التي يتبناها وللطريق الصوفي الذي سَلَكه، فهذا مدحٌ ضمنيٌّ لعقيدة الأشاعرة عقيدةِ أهل السنة.

6- الشهيد البطل نور الدين محمود زنكي:

كان هذا البطل على صلة عميقةٍ برجال التصوف في عصره، فكان يستشيرهم ويتخذ منهم خير سَنَدٍ في حروبه مع الصليبيين، قال ابن الأثير: وكان يُحضِرُ مشايخَهم ويقرِّبهم ويباسطهم ويتواضع لهم، فإذا أقبلَ أحدُهم إليه يقومُ له مذ تقعُ عينه عليه، ويعتنقه ويجلسه معه على سجادته ويُقبل عليه بحديثه.

ومَن لا يستطيع المجيء إلى السلطان نور الدين فيزوره السلطان بنفسه.

ومنهم: الشيخ القدوة حياة بن قيس الحرَّاني وكان صاحب كراماتٍ وأحوال، زاره السلطان وتبرَّك بلقائه فقوَّاه الشيخُ على جهاد الفرنج.

ومنهم: الشيخ عمادُ الدين أبو الفتح بن حموية نزيل دمشق، قال عنه البنداري: لم يكنْ له في علم الطريقة والحقيقة مساوٍ، فأقبلَ عليه نور الدين زنكي بكلِّيَّته، وأمره بإنشاء منشورٍ له بمشيخة صوفية الشام.

ومنهم: رجلٌ صالحٌ كثيرُ العبادة والورع، شديد الانقطاع عن الناس، فكان نور الدين يكاتبه ويراسله ويرجع إلى قوله. كما في تاريخ دمشق.

ومنهم: ابن الصابوني الزاهد، وكان مارًّا بدمشق فسأله نور الدين الإقامة فيها، فاعتذر له وذكر له أنه يقصد زيارة الإمام الشافعي (يعني قبرَه)، فجهَّزَه إلى مصر وأرسلَ معه الأمير نجم الدين أيوب (والد صلاح الدين الأيوبي) وهذا يدلُّك على أنه يقول بجواز زيارة القبور والتوسُّل والتبرُّك.

ومنهم: شهاب الدين عبد القادر السُّهرَوردي صاحب كتاب (آداب المريدين)، كان شيخَ العراق في وقته، ورجع بسببه خلقٌ كثير إلى الله تعالى.

ومنهم: الشيخ عمر الملا، فلما فتح نور الدين الموصل، قصد زيارة الشيخ عمر الملا في زاويته، وكان نور الدين يستشير هذا الشيخ في أموره ويعتمد عليه في مهماته، وعندما غادر نور الدين الموصل أمر الولاة والأمراء فيها أن لا يفعلوا أمرًا حتى يُعلموا الشيخَ عمرَ به.

قال البنداري في (سنا البرق الشامي) عن الشيخ عمر الملا: وهو من أئمة العارفين، كان العلماء والملوك والأمراء يزورونه في زاويته في الموصل، وله كل سنة دعوة في أيام مولد النبي صلى الله عليه وسلم، ينشد الأشعار في ذلك المحفل في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، وكان نور الدين من أخلَصِ محبيه وكان يستشيره ويكاتبه.

ولم يكن يقتصرُ نور الدين على احترام الأحياء فقط والتبرك بهم، بل الأموات أيضًا، فقد خرج سنة (565 هـ) إلى داريا وتبرَّك بضريح أبي سليمان الداراني وعمَّرَ ضريحَه.

وعزم نور الدين على تجديد بناء قبة الإمام أبي حنيفة النعمان، لكنه عدلَ عن ذلك لما رآها في حالةٍ جيدة (ومن المعلوم أن بناء مشهد وقبة على قبر الإمام أبي حنيفة كان بأمر السلطان السلجوقي ألب أرسلان صاحب معركة ملاذكرد التي انتصر فيها على الروم سنة 463هـ).

وألب أرسلان هذا كان موضع إعجابِ وثناء المؤرِّخين، وذكر ابن كثير عنه : وفيها أي سنة 465 هـ توفي ألب أرسلان سلطان العالَم، وكان عدلًا، سيرتُه حسنة، كثير الدعاء.... وكان يتبرَّكُ بالصوفية).

والتقى ألب أرسلان بالشيخ الإمام الأستاذ أبي القاسم القشيري (485 هـ) صاحب رسالة التصوف المشهورة بالرسالة القشيرية، والتقى بأبي نصر محمد بن عبد الملك البخاري الذي أشعلَ في الملك وجيشِه الحماسة.

نرجع إلى الشهيد نور الدين، وذكروا أن بعضَ أصحاب نور الدين لامه على المبالغة في تكريم الصوفية، فغضبَ وقال: (إن الله لا يغيِّرُ ما بقومٍ حتى يغيِّروا ما بأنفسهم) واللهِ إني لا أرجو النصر إلا بأولئك (أي الصوفية) فإنما تُرزقون وتُنصرون بضعفائكم، كيف أقطعُ صلات (عطايا) قومٍ يقاتلون بسهامٍ لا تخطئ. من وفيات الأعيان وعبرة أولي الأبصار.

وهذا الشهيد البطل هو الذي مهَّد الطريق أمام صلاح الدين الأيوبي، فاتَّبع سياسةً قائمةً على التربية الروحية الخالصة، وخارجيًا عمل على توحيد البلاد (فبنى الروابط والخانقاهات في جميع البلاد للصوفية ووقفَ عليها الأوقاف الكثيرة، وأدرَّ عليهم الإدرارات الصالحة، وكان حاصِلُ وقفه كلَّ شهرٍ تسعة آلاف دينار) الكامل لابن الأثير وغيره. والخانقاه: مكان يشبه الزاوية وهو للذكر والعلم والخلوة.

ومن عطاياه أمر بعشرة آلاف درهمٍ لبناء رباطٍ للشيخ أبي البيان القرشي الشافعي الزاهد، وأجمعَ المؤرِّخون أنه كان ملِكًا شجاعًا عابدًا زاهدًا، وكان يقترضُ المال أحيانًا ليعطي، وجعلَ من الجهاد وسحقِ الصليبيين همَّه وغايته.

ويذكر ابن كثير في البداية والنهاية حكايةً مفادُها: أن أناسًا سمعوا الإفرنج يقولون: إن القسيمَ ابنَ القسيم (يقصدون نور الدين) له مع الله سرٌّ، فإنه لم يظفَر ويُنصر علينا بكثرة جنده وجيشه.

وينقل لنا المؤرِّخُ أبو شامة في كتابه (عيون الروضتين) هذه الصورة من تواضع نور الدين، فيقول: بلغني أن نور الدين، عندما التقى الجمعان (الجيشان) وبلغتِ القلوب الحناجر، أنه مرَّغَ وجهه في الأرضِ وتضرَّعَ، وقال: اللهم انصر دينك، ولا تنصر محمودًا، ومَن هذا الكلب -يعني نفسه- حتى يُنصَر؟

وقد تمَّ ببركة دعائه هذا فتح المدينة المحاصَرة.

ولا نستغرب أن أهلَ السِّيَرِ والتواريخ يعدُّونه من جملة الأولياء الأربعين الــمُلهَمين، حتى من الأبدال، وأنه صاحب كراماتٍ وكشوفات. انظر شذرات الذهب، بدائع الزهور وحوادث الدهور، وغربال الزمان.

ونسأل العاقلين: لو أنَّ التصوفَ ضلالٌ وشركٌ، هل حفظ الله هذا الدين بالضالين؟؟!!! هل نصرَ الله أهل الضلال والشرك على الصليبيين والكفار؟؟!!!

وقد عمل رحمه الله تعالى ورضي الله عنه منبَرًا بحلب، وقال هذا لأجل القدس، فأدركتْه المنيَّة قبل ذلك. وكان الفتح على يد مَن أراد الله وهو صلاح الدين الذي أمر بالمنبَر ووضعَه في الأقصى وبقي فيه حتى سنة 1969م حين أحرقه الصهاينة.

وذكر ابن الجوزي الملكَ نورَ الدين: (أنه كان يلبسُ الصوف ولازمَ السجادة والمصحَف وله أوراد حسَنة، وكان حنفيًّا (نسبة لمذهب أبي حنيفة في الفقه)، ولا يُذكر في مجلسه إلا أحوال الصالحين والمشورة في أمور الجهاد، وكان من أقوى الناس بدنًا وقلبًا، وأنه لم يُرَ على ظهر فرسٍ أشدُّ منه، وكان يباشر القتال بنفسه، ويقول: طالما تعرَّضْتُ للشهادة فلم أُدرِكْها).

قال الذهبي: (وقد أدركَها على فراشه، وبقي ذلك في أفواه الناس فتراهم يقولون: نور الدين الشهيد، وقد ألقى الله محبَّتَه في قلوب الناس، فلا ترى إلا مترحِّمًا عليه، وزائرًا قبرَه متوسِّلًا به إلى الله تعالى مع الاعتقاد أن الضار النافعَ هو الله تعالى، وخَلقُه أسبابٌ فقط).

7- البطل صلاح الدين الأيوبي:

نشأ صلاح الدين وترعرعَ في بيئةٍ يغلبُ عليها طابَعُ التصوف في العصر الوسيط الذي ارتبط فيه الصلاحُ والورعُ وحسنُ العقيدة بالصوفي.

فأبوه الأمير نجم الدين أيوب كان خيِّرًا حسَنَ السيرة، كثيرَ الإحسان إلى الفقراء والصوفية والمجالَسة لهم. قال ابن كثير:(كان شجاعًا، كثير الصلاة، وله خانقاه (زاوية) بالديار المصرية، وله أخرى بدمشق، ورأى ابن خلِّكان زاوية للصوفية يقال لها النجمية في مدينة بعلبك، وهي منسوبة إليه، وقال: وكان كثير الصلاح).

وكان التأثير الكبير على شخصية صلاح الدين من سيده نور الدين الشهيد الذي تعلَّمَ منه طرائق الخير ومحبة أهل الله، فسار على الدرب نفسه، فقبلَ تحرير الأقصى، بقي 12 سنة يعملُ من أجل تحقيق الوحدة وإعداد قوة المادية والروحية، فزاد من إنشاء الزوايا والرُّبَطِ لتدريس الجنود العقيدة الأشعرية والماتريدية (عقيدة أهل السنة والجماعة) وتربيتهم على الطرق الصوفية، وتدريبهم عسكريًا، بمعنى أنها كانت أماكن لبناء الشخصية الإسلامية المتزنة التي تستحقُّ نصرَ الله تعالى.

قال القلقشندي: (وأما الخوانق والربط والزوايا فمما لم يُعهَدْ بالديار المصرية، قبل الدولة الأيوبية وكان المبتكر لها صلاح الدين بن أيوب) ووافقه المقريزي والسيوطي وغيرهما وقالوا: (ووقفَ عليها أوقافًا كثيرةً، وكان سكانُها يُعرفون بالعلم والصلاح، و وَليَ مشيَخَتَها الأكابر، وممن تُرجى بركتُهم، مع ما كان لهم من الوزارة والإمارة وتدبير الدولة وقيادة الجيوش وتقدمة العساكر).

كان صلاح الدين أينما حلَّ ونزل يبني المدارس الشرعية والمدارس الروحية جنبًا إلى جنب، فخلال فتح القدس أمر المسلمين بألا يتعرَّضوا للكنيسة لأن نصارى القدس قبلوا بالعهد والذمة، وبنى بالقرب منها مدرسة للفقهاء الشافعية، ورباطًا للصلحاء الصوفية، وفي فتحه لعكا وقف نصفَ دار "الإستبار" رباطًا للصوفية ونصفها مدرسة للفقهاء. ومن المعلوم أن هؤلاء الصوفية والفقهاء كانوا في جيشه أثناء الفتح.

(وكان فتحه عظيمًا، شهده من أهل العلم خلْقٌ ومن أرباب الخِرَقُ والزهد عالَمٌ) وفيات الأعيان.

وقال ابن الوردي: (وشهد فتحَه كثير من أرباب الخرق والزهد والعلماء في مصر والشام بحيث لم يتخلَّفُ منهم أحدٌ).

وكان صلاح الدين يصحبُ معه علماء الصوفية لأخذ الرأي والمشورة (وكان اعتماده على جماعة من الصوفية الزهاد، فأوكلَ إليهم قتلَ أبطال الإفرنج المعروفين بالفرسان، لأن هؤلاء الصوفية كانوا أشد شوكة). رجال ومواقف.

ولا بد من الذكر أن الذين حاربوا في معركة حطين كان أكثرهم من الصوفية وأتباعهم وليس للجند النظامي. الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام.

يقول جمهور المؤرِّخين أن صلاح الدين (كان حَسَنَ العقيدة، كثيرَ الذكر لله تعالى، أخذ عقيدته مع الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم، وقد جمع له الشيخ أبو المعالي النيسابوري المعروف بالقطب عقيدةً سليمة في علم الظاهر والباطن، وحفظها صلاح الدين غيبًا، وكان شافعي المذهب أشعري الاعتقاد، وكان يلقِّنُ أولاده من صِغرهم عقيدة الأشعري، ويحفِّظهم المنظومة المذكورة في عقيدة الأشعري، كما كان يلقِّنهم القرآن).

وألَّفَ له تاج الدين محمد بن هبة الله المكي الحموي منظومة في العقيدة باسم (حدائق الفصول وجواهر الأصول) فأمر السلطان بتدريسها في المكاتب للصبيان.

قال السيوطي: (إن السلطان صلاح الدين بن أيوب أمر المؤذِّنين في وقت التسبيح أن يُعلنوا بذكر العقيدة الأشعرية، فوظَّفَ المؤذِّنين على ذكرها كلَّ ليلةٍ إلى وقتنا هذا) أي إلى وقت السيوطي المتوفى سنة 911هـ.

قال ابن جبير وهو يعدِّدُ آثارَ الصالحين: ومنها قبة ومشهد الإمام الشافعي وهو من المشاهد العظيمة، وسلطانُ هذه الجهاتِ صلاحُ الدين يقول للقائم على المشهد والخادم: زِدِ احتفالًا وتأنُّقًا وعلينا القيام بمؤنة ذلك كلِّه.

وكما هو معروف فقد زار صلاح الدين قبر الإمام الشافعي للتبرُّك به. روض المناظر.

ومن الأضرحة التي زارها صلاح الدين قبر الخليفة الراشد الزاهد عمر بن عبد العزيز في معرَّة النعمان، وكان له هدفٌ آخَر من هذه الزيارة وهو لقاء العالِم الصوفي المقيم دائمًا هناك أبي زكريا المغربي، وكان هذا الشيخ صاحب كرامات ظاهرة. قال المؤرِّخ أبو شامة: فتبرَّك صلاح الدين بزيارة الحي والميت.

وكان صلاح الدين إذا سمع بأحد من العارفين بالله زار زاويته ليقتبس من أنواره، فزار الشيخ حياة بن قيس الحرَّاني وطلب منه الدعاء بعدما استشاره في أمر فتح الموصل، وبعد فتح الموصل جعل عليها أميرًا (أتابك عز الدين مسعود زنكي) وكان من خيار الملوك، قال عنه ابن الأثير: (وكان حليمًا، كثير الحياء، وكان قد حج ولبس بمكة خرقة التصوف).

وكان صلاح الدين يجلُّ ويحترم الطبيب الصوفي الأندلسي عبد المنعم الجلياني صاحب كتاب (أدب السلوك)، قال ابن شاكر: (وكان الجلياني أديبًا فاضلًا، وطبيبًا حاذقًا، له معرفة بعلوم الباطن وبالكلام على طريق القوم). وقد رافق هذا الشيخ الطبيب صلاحَ الدين في معظم حروبه.

كما رحل صلاحُ الدين هو أولاده لزيارة الحافظ الأصفهاني الذي كان فقيهًا صوفيًا.

ومن مشايخ الصوفية الذين كان يراسلهم صلاح الدين ويعتقد فيهم:

1- أبو عبد الله بن الحسين المعروف بـ(قضيب البان) القادري البغدادي الذي كان له خُطبٌ ومواقف كانت أحد العوامل التي شجعتِ الملوك لقيامهم بتحرير بيت المقدس.

وقبل وفاته بعث قضيبُ البان عددًا من أبنائه إلى السلطان صلاح الدين للمشاركة في تحرير القدس واستطاع أحد هؤلاء الأولاد، وكان ملثَّمًا، قتلَ أحد قادة جيوش الصليبيين، وقد طُلبَ الفارس الملثم للمكافأة فلم يُجبْ أحدٌ.

وبلغ من تعظيم صلاح الدين للرسول صلى الله عليه وسلم واهتمامه بالمولد الشريف أنه كان يدفع العطايا والهدايا للكُتَّاب الذين يؤلِّفون في قصة المولد تشجيعًا لهم.
وجديرٌ بالذكر أن المدائح النبوية ازدهرت في فترة الحروب الصليبية، وأصبحت فنًا مستقلا بذاته، فقد مدح الشعراء الرسول الكريم وتوسلوا به إلى الله لكشف الغمة عن الأمة.

2- ومنهم الشاعر الشهيد ابن رواحة الحموي وكان قد زار النبي متوسلًا ومستشفعًا به إلى الله تعالى ليحققَ أمنيته بالشهادة، فقال:

يا خاتم الرسل سلِ الله لـي خاتمةً محمودةَ الـعاقبة
ولا تردَّنَّ يدي بعـد مـا مددتُها مستشفعًا خائبة

ولما نام رأى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول له: قُبلتَ يا ابن رواحة.
وبعدما عاد من زيارة النبي رافق صلاحَ الدين في فتحه لعكا واستشهد هناك.

وحكى ابنُ الأثير أن صلاح الدين كان يجتمع عنده الصوفية كل ليلة جمعة، ويتداعون لحضور مجالس الذكر وسماع الأناشيد والقصائد الصوفية النبوية (وكان يحضر عنده الفقراء والصوفية ويعمل لهم السماع – حضرة الذكر – فإذا قام أحدهم متواجدًا، فيقوم له صلاح الدين، فلا يقعد حتى يفرُغَ الفقير).

رحمه الله تعالى ورضي عنه وجزاه عن المسلمين خيرًا.

وقد ذكر القاضي مجير الدين الحنبلي في (الأنس الجليل) وغيرُه: أن الدعاء عند قبر صلاح الدين مستجاب.

وقبل وفاته رضي الله عنه زوَّجَ أختَه خاتون لأبي سعيد كوكبري صاحب إربل وذلك لحسن سيرته وشجاعته وحسن اعتقاده في التصوف.

قال ابن كثير في ترجمة أبي سعيد (صهر صلاح الدين): (أحد الأجواد والسادات الكبار، والملوك الأمجاد، له آثار حسنة، وكان يعمل المولد الشريف ويحتفل به احتفالًا يحضره العلماء – وكلهم صوفية- والصوفية، ويصرف عليه كل سنة 300 ألف دينار، وكان مع ذلك شهمًا شجاعًا بطلًا عالمًا عادلًا..... واستطاع أن يفكَّ من أسرى المسلمين عند الإفرنج 60 ألف مسلم، وقد صنف له الشيخ أبو الخطاب بن دحية مجلَّدًا في المولد سماه (التنوير في مولد البشير) فكافأه على ذلك بألف دينار).

وقال ابن خلِّكان عنه: (... ولم يُنقل أنه انكسر في معركة قط، وكان حسن العقيدة، ويعمل السماع للصوفية، وبنى لهم الخوانق والربط – الزوايا – ويحتفل بالمولد.... فإن الوصف يقصر عن الإحاطة به...... وكان يعمل للجنود عرضًا أثناء الاحتفال بالمولد وينظر تارة للناس وتارة للجند، وبعد الانتهاء من العرض يُعِدُّ سماط الأكل والحلوى...... ومع الاعتراف بجميله ومحاسنه، فلم أذكر شيئًا على سبيل المبالغة بل كل ما ذكرته عن مشاهدة وعيان).

ونأخذ نموذجًا من أولاد صلاح الدين الذين رباهم أفضل تربية، منهم الملك الظاهر غياث الدين غازي صاحب حلب أي أمير حلب.

كان غياث الدين يكثر التردد على الشيخ محيي الدين ابن عربي الشيخ الأكبر رضي الله عنه، ويسأله الدعاء ويتلقى منه الإرشاد، وقد أثنى عليه ابن عربي قائلًا: (ما رُفعتْ إليه حاجة من حوائج الناس إلا سارع في قضائها من فوره من غير توقف كائنةً ما كانت).

كان مهيبًا ذا سياسة، ودولته معمورة بالفضلاء والأكابر، حضر معظم الغزوات مع والده صلاح الدين، وكان ملجأً للغرباء وكهفًا للفقراء، يزور الصالحين ويتفقَّدهم.

وهو الذي صد غارات الصليبيين عن حلب، وقد علَّق المؤرِّخ البريطاني توينبي على ذلك بقوله: (لو سقطتْ حلب للصليبيين لصار الشرق لاتينيًا).

فاعرف مَن شرَّفهم الله تعالى وحفظ على أيديهم هذا الدين، وكانوا سببًا لوصوله إلينا، فهل هم ضالون مشركون؟؟!!!! وأين كان هؤلاء الذين يتشدقون بأفواههم مضللين ومكفرين للناس على هوًى واشتهاء؟؟؟؟.

كان الملك غياث الدين غازي كوالده صلاح الدين يوقِفُ على مزارات الأولياء أوقافًا جمة.

قال ابن الأثير: (كان رحمه الله من خيار عباد الله تعالى).

فصل[15]

وجدتُ من المفيد ونحن نكتبُ عن حقيقة التصوف أن أذكر إسهام الصوفية رضي الله عنهم بالدفاع عن هذا الدين والدعوة إليه، ردًا على مَن يقول أن مَن أوصل الأمة إلى ما هي عليه الآن هم الصوفية.

وهذا محضُ افتراء، بل الحق يقال أنه لولاهم لما وصل إلينا الدين ولا حديث النبي صلى الله عليه وسلم ولا القرآن ولا العلم، لأنك نادرًا ما ترى عالِمًا غير صوفي. ومَن شكَّ فليدقِّقْ وليبحثْ ولا يجادلْ متبعًا هواه.

فأذكر في العصر الحديث بعض الأخبار عمن حرروا البلاد وقاوموا الاحتلال وبذلوا كلَّ غالٍ لنشر الدين بالتعليم والدعوة، حتى لا يغترَّ المسلمون ببعضِ مَن ينعقون ويصيحون في هذه الأيام مصورين أنهم هم أهل الجهاد وحماية الإسلام، وهم كذابون برآء من هذه الدعوى براءة الذئب من دم يوسف عليه الصلاة والسلام[16].

1- ليبيا:

- محمد بن علي السنوسي (1859 م)

هو الإمام العارف بالله، الداعي إلى السنة، ختم المحدثين، الولي المقرَّب محمد بن علي السنوسي، تعلَّم في مدينة فاس (المغرب) وتربى على الشيخ أحمد بن إدريس الفاسي.

ثم أخذ الطريقة الشاذلية عن مولاي العربي الدرقاوي وصار شيخًا للطريقة الشاذلية، والتقى بكثيرٍ من المشايخ والمحدثين، واشتغل بالعلم حتى صار مرجعًا في علوم الحديث والفقه والتصوف، وكان ذكيًا جدًا، قوي الشخصية، كَثُرَ مريدوه، فعمل على بناء قوة إسلامية فأنشأ لذلك الزوايا التي لم تكن للعبادة والتعليم فقط، وإنما كانت مراكز نشاط وحيوية وإصلاح، فكان مما يتعلَّمه المريد الرمايةَ وإتقان أساليب القتال إضافة إلى علم التوحيد والفقه والآداب والتصوف.

---

15 غالب ما في هذا الفصل مأخوذٌ من كتاب (البطولة والفداء عند الصوفية، دراسة تاريخية) لأسعد الخطيب جزاه الله خيرًا على جهده في هذا الكتاب المهم النافع الماتع.

16 انظر فتوى الألباني بأن على الفلسطيبيين أن يتركوا أرضهم لأنها أصبحت دار كفرٍ بوجود اليهود بدل أن يدعوهم للجهاد، وهو الذي يصفونه بالمحدِّث، وهو من هذه التهمة بريء. وكذلك انظر فتوى ابن باز بجواز الصلح الدائم مع اليهود!!

وعند الغزو الإيطالي تحولتْ هذه الزوايا إلى مراكز حقيقية للدفاع عن الوطن، تحمَّل فيها السنوسيون (أتباع محمد بن علي السنوسي) مشقَّات النضال، وكان ذلك بقيادة البطلين المجاهدَين: عمر المختار و أحمد الشريف السنوسي.

- عمر المختار

التحق بالزاوية السنوسية وعمره 16 سنة، وتعلم فيها على يدي كبار الشيوخ، وكان لا ينام من الليل إلا ساعتين أو ثلاثة، ويختم القرآن كل أسبوع، واتخذ زاوية في منطقة جغبوب كانت مركزًا للعلم والذكر وللعمليات العسكرية.

- وأما أحمد الشريف السنوسي فهو العالم الجليل والمحدث الصوفي الشهير، ويُعدُّ من كبار المجاهدين ضد الاحتلال الإيطالي.

ومع ذلك كان صاحب علمٍ غزيرٍ وصنف كتبًا منها: (الفيوضات الربانية) و (بغية المساعد في أحكام المجاهد) وذكر فيه أنه من الواجب الرئيسي على كل مريد أن يكون مستعدًا للجهاد في كل وقتٍ طُلبَ منه، وله كتاب (الأنوار القدسية في مقدمة الطريقة السنوسية) ومما قاله في كتابه هذا: دعامة هذه الطريقة: متابعة السنة في الأقوال والأفعال والأحوال.

فانظر شدة تمسُّكهم بالكتاب والسنة، ولولا ذلك لم يوفقهم الله للوقوف في وجه الغزو الإيطالي.

وذكر في كتابه هذه الأبيات التي تبين أساس الطريق الصوفي وأنه مستمد من الدين الإسلامي:

اعلمْ بأنَّ عُمدةَ الطريقِ ثلاثُ أركانٍ على التحقيقِ

توبٌ وزهدٌ ودوام العملِ بالصدقِ والخوفُ وقطعُ الأملِ

2- السودان:

الشيخ محمد أحمد المهدي

هو محمد أحمد الملقب بالمهدي، حفظ القرآن منذ صغره وتعلَّم علم الفقه والعلوم الشرعية، ثم سلك طريق التصوف عند أحد مشايخ السمانية الشاذلية، ثم ظل في مجاهدة نفسه والتعبد 15 سنة في جزيرة (أَبَا) جانب نهر النيل.

وفي تلك المنطقة (أبا) سلك عليه السكان الطريق الصوفي، وأخذ يعلمهم ويربيهم، فذاع صيته كرجل صلاح وتقوى، وبدأ المكاتبة لرجال الدين من مشايخ الطرق والعلماء والوجهاء، وذلك للتجهُّز والاستعداد لملاقاة العدو، فأُحضرتِ الرايات من كافة أنحاء البلاد مكتوبٌ على كل واحدة: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

يقول عبد الرزاق البيطار في (حلية البشر): ظهر رجلٌ بالسودان يسمى محمد أحمد ولم يدَّعِ أنه المهدي – كما اتُّهم بذلك – وكان قبل ظهوره مشهورًا بالصلاح ومن مشايخ الطرق، وكثر أتباعه ومريدوه، فلما دخل الإنجليز حاربهم وحصل له وقائع (معارك كثيرة)، والغلبة في تلك الوقائع كلها له عليهم، وقتل منهم خلقًا كثيرًا، فتملَّك جميع السودان.

وكان أمره معهم عجيبًا يأتون إليه بالعساكر الكثيرة والمدافع والآلات الشهيرة، فيقابلهم بجيوش السودانيين وليس معهم إلا السيف والرمح والسكاكين.

وتمكَّن الثوار المريدون بقيادة الشيخ المهدي من محاصرة الخرطوم وقتْل الحاكم الإنجليزي غوردن، وكان المهدي يريده حيًا ليفتدي به الشيخ أحمد عرابي رفيق دربه في العقيدة والكفاح ويخرجه من منفاه.

ويقول تشرشل: إن المؤرخ العربي الذي سيكتب تاريخ السودان يجب أن لا ينسى أن يكتب في طليعة أبطال الشعب العربي اسم محمد أحمد.

توفي رضي الله عنه ولم يتجاوز 42 سنة بمرض الحمى.

3- مصر:

والكلام عن هذا البلد الرائع في دائرة التصوف لا تحويه مجلدات، ولكن نذكر بعضًا من الأخبار في عصرنا الحديث لعلها تفي بالمقصود.

أحمد عرابي البطل والزعيم (1911 م):

نشأ في بيئة صوفية ويُذكر عن أبيه أنه كان شيخًا جليلًا ورعًا، وجده تزوج شقيقة السيد أحمد الرفاعي الصيادي، وجاء في كثيرٍ من الوثائق الصحفية والكتابات (أحمد عرابي الحسيني، مسلم صوفي، محب لأهل البيت، جاور في الأزهر عامين، واتصاله وثيق مع العلماء قد التفَّ حوله جندٌ مؤمنون بالله، يقضون الليل في الاستماع إلى القرآن وفي حلقات الذكر).

وتمتع أحمد عرابي بشخصية قوية، له تأثير على نفوس الضباط الذين أحبوه وانضموا تحت لوائه وشاهدوا أقواله موافقة لأفعاله.

وكان يعيش عيشة الزاهد المتقشِّف متأسيًا بالسلف الصالح وهو القائل: لا نجاح لأمة نبذَتْ أحكام دينها ظِهريًا، ولا فلاح لقومٍ استعبدوا الشهوات.

وكان من ضمن مجلس القيادة الأعلى الذي شكَّله عرابي الشيخان الجليلان الصوفيان: الشيخ حسن العدوي صاحب كتاب (نفحات الشاذلية) وهو من خطباء الثورة، والشيخ العلامة محمد عُليش صاحب المصنفات الكثيرة المشهور والذي توفي في سجن المستشفى الذي دخله بتهمة تحريضه على الانضمام ومساعدة الثورة، ومن مؤلفاته (القول المنجي شرح مولد البرزنجي) وهو مطبوع.

ولا ننسى الدور النضالي للشيخ محمود الشاذلي والشيخ محمد القاياتي وأخيه أحمد والعلامة النقشبندي محمد الطنطاوي رحمهم الله أجمعين.

ولا ننسى حملة نابليون وما تصدى لها إلا علماء الأزهر الشريف الذين كانوا من طراز خاص علمًا وتصوفًا، وكان بيدهم تحريك الجماهير فقتل نابليون منهم كثيرًا منهم:

الشيخ محمد السادات شيخ السجادة الوفائية للطريقة الوفائية، حيث قاد ثورة القاهرة الأولى سنة 1798 م.

والشيخ عمر مكرم نقيب الأشراف الذي قاد ثورة القاهرة الثانية سنة 1800 م.

والشيخ علي البكري الصديقي شيخ السجادة البكرية وشيخ الطرق الصوفية، ولقَّبتْه الجرائد بـ(شيخ الأمة) وقد تقلَّد بعده ابنه محمد توفيق مشيخة الطرق الصوفية وهو أول مَن نادى (مصر للمصريين وأنا ضد أي احتلال أجنبي)، (وعمل على تكتيل الرأي العام ضد الاستعمار البريطاني وفعل بمصر في النفوس والعقول ما تفعله شعلة نارٍ إذا أُلقيتْ في بحر من البترول. من جريدة الأمة في 3/4/1906م).

ومن المعروف أن الذي اغتال القائد الفرنسي كليبر هو سليمان الحلبي الطالب الأزهري السوري، وقبل أن يقتله اتَّبع برنامجًا شديدًا بالصوم والعبادة وعندما هاجتِ القوة الروحية في نفسه خرج من معتكفه وخلوته، ولم يُفش سره إلا لثلاثة من زملائه من عائلة الغزي الفلسطينية المشهورة بالتصوف، ونفَّذ بطولته بقتل هذا القائد، ثم أعدم سليمان الحلبي البطل الشهيد ورفاقه الثلاثة سنة 1800م.

الشيخ الشهيد حسن البنا (1949م)

كيف أعرِّفه وبحر دعوته نهرٌ تدفَّق، وشجرةُ جهاده يعرفها الصديق والعدو، فرحمة الله تعالى عليه ما أعلى همته وشدة همه بدين ربه.

ونذكر عن هذا الشيخ أن والدَه كان عالِمًا عاملًا ويعمل بتجليد الكتب وتصليح الساعات فلقِّبَ بالساعاتي فنشأ حسن في ظل تربية والده الشيخ أحمد البنا الساعاتي رحمه الله تعالى في بيتِ علمٍ وصلاح.

فالشيخ حسن البنا كان أشعريَّ العقيدة، وأخذ الطريقة الشاذلية الحصافية عن الشيخ عبد الوهاب الحصافي سنة 1923م حيث كان لهذا الشيخ أثرٌ كبيرٌ في بناء شخصية حسن البنا.

ويقول الشيخ البنا (ليلة الجمعة في منزل الشيخ شلبي وبعد الحضرة نتدارس فيها كتب التصوف من إحياء علوم الدين وسماع أحوال الأولياء وكتاب اليواقيت والجواهر للشعراني وغيرها ونذكر الله إلى الصباح، كانت من أقدس مناهج حياتنا).

ويقول (وحفظتُ وأنا في هذه المرحلة من التعليم خارج المناهج المدرسية كثيرًا من المتون العلمية المختلفة.. ومنها جوهرة التوحيد في علم العقائد وبعض متن السلم في علم المنطق)[17].

ويقول عن تشجيع والده له على القراءة وإهدائه بعض الكتب (ومن أعمقها أثرًا على نفسي: الأنوار المحمدية للشيخ يوسف النبهاني، ومختصر المواهب اللدنية للقسطلاني، ونور اليقين في سيرة سيد المرسلين للشيخ الخضري...).

في عمرٍ مبكِّر اختير رئيسًا لجمعية الأخلاق الأدبية لِما يتمتع به من صفات القيادة والنبوغ، ثم أنشأ مع زملائه خارج المدرسة جمعية منع المحرمات، وتقوم على إرسال رسائل خطية لمَن يرتكبون المعاصي والآثام وتتضمن النصح بلطفٍ وحكمة، ثم تطورتِ الفكرة في نفسه فأنشأ الجمعية الحصافية الخيرية (على اسم شيخه) التي تركِّز عملها على محورَين:

الأول: نشر الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة ومقاومة المنكرات والمحرمات المنتشرة.

والثاني: مقاومة الإرساليات التبشيرية التي اتخذت من مصر موطنًا لها وتسترت تحت ستار الطبابة وتعليم المهن والحِرَف وإيواء الطلاب وغيره من الخدع.

يقول البنا عن هذه الجمعية: وقد كافحت الجمعية في سبيل رسالتها مكافحة مشكورة، وخلفتْها في هذا الكفاح جمعية الإخوان المسلمين بعد ذلك.

وفي العام 1928م أسس الشيخ حسن جماعة "الإخوان المسلمون" مع ستة من إخوانه وكانت دعوته نقية صافية تحملُ فِكرَ الحياة الإسلامية في ظل الشريعة الإسلامية وتحكيمها في شؤون الحياة كلِّها، فقال هو عن دعوته: (إن الإخوان المسلمون دعوة سلفية، وطريقة سنية، وحقيقة صوفية، وهيئة سياسية، وجماعة رياضية، ورابطة علمية ثقافية، وشركة اقتصادية، وفكرة اجتماعية).

ويقول أيضًا: (الإسلام عبادة وقيادة، ودينٌ ودولة، وروحانية وعمل، وصلاحٌ وجهاد، وطاعة وحكم، ومصحفٌ وسيف، لا ينفك واحد عن الآخر)[18].

بهذا الفكر العصري المستنير بنور الكتاب والسنة انتشرت حركته في سنوات قليلة لأن إخلاصَه وصدقَ جهاده وهمتَه كانت الغذاء لهذه الحركة.

إن دعوته كانت مجرد تنظيمٍ عصري وتنفيذ عملي ورؤية جديدة لأحكام ديننا الحنيف فلم يبتدع دينًا ولا شرعًا جديدًا بل كان همه أسلمة الحياة كلها.

---

17 فليسمع المنتسبون إلى الشيخ حسن البنا، أين هم مما قرأه شيخهم في علم التوحيد وعلم تهذيب الأخلاق، ولماذا لم يقرروه في مناهجهم، ولم يقيموا مجالس قراءة وتدريس علم التوحيد كرسالته في العقائد وغيرها من كتب أئمتنا والتصوف السليم كإحياء علوم الدين للغزالي أو العهود المحمدية للشعراني كما فعل هو رحمه الله تعالى ورضي عنه.

18 ليتنا نرددها كاملةً دون اجتزاء، ونعمل بما فيها دون تفريق أوترك شيءٍ منها، فإنها كلمة غالية. بل بعضهم لا يحفظها أصلًا.

ولا يفوتني أن أذكر كتابه الصغير النافع الممتع الذي كتبه في العقيدة الإسلامية وسماه (العقائد الإسلامية) فإنه مستمدٌّ من القرآن الكريم وكان من أجمل ما قرأتُ في علم التوحيد وهو يرى رأي الأشاعرة فيه ويوفق بين طريقة السلف والخلف في المتشابهات.

وأنبه على أن قول الشيخ البنا عن جماعته (دعوة سلفية) ليس المقصود بها السلفية تلك الفرقة التي تدعي الآن اتباعَها للسلف زورًا وكذبًا، بل يقصد أن دعوته تأخذ السلف الصالح القدوة المثلى بعد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولمزيد العلم فإن رئيس هذه الفرقة المنتسِبة إلى السلَفِ زورًا وكذبًا المسمى ابن باز وغيره قد كفَّروا الشيخ حسن البنا واعتبروا جماعة الإخوان المسلمين خارج أهل السنة والجماعة والعياذ بالله من هذا الكلام، وقد كتبوا في ذلك كتابًا كبيرًا بعنوان (إثبات فساد منهج ودعوة حسن البنا وأنها ليست على منهج السلف الصالح) والسبب أن حسن البنا كان أشعريَّ العقيدة صوفيًا وأنه يحتفل بالمولدالشريف ويزور أضرحة الأولياء.

ومَن أراد الاستزادة عن حسن البنا فليراجع كتاب مذكرات الدعوة والداعية.

ونخلُصُ أن هذه الروح الصوفية والتعبد والهمة العالية آتت ثمرتها ونتاجها عبر ما تركه الشيخ البنا من دعاة ورسالة وكتبٍ كما لا يخفى على أحد.

ولما مات رثاه كثيرٌ من رجالات العصر من العلماء الكبار فأنقل كلام الشيخ المجاهد عبد الكريم الخطابي: لو لم يكن حسن البنا وليًا فليس لله ولي.

وقد عاصره والتقاه ورافقه الشيخ العلامة مولانا محمد الحامد النقشبندي، ولما استشهد قال عنه: إن موت ولديَّ ولم يكن لي غيرهما أهون علي من وفاة الأستاذ المرشد. وكتب كلمة في وفاته في مجلة الشباب تبعثُ الألم والعاطفة من الصميم.

4- اليمن:

وفيها الشيخ المصلح الشاذلي عبد الله الحكيمي (1959م) هاجر إلى جزر كارديف وهدى الله على يديه كثيرين إلى هذا الدين الحنيف وأسس هناك (الجمعية العلوية الشاذلية[19]) ثم عاد إلى اليمن وتزعم حركة التحرير الوطني حتى توفي رحمه الله تعالى. من كتاب الإسلام وحركات التحرر العربية للدكتور شوقي أبو خليل.

5- المغرب:

---

19 العلوية نسبة إلى سيدنا الإمام علي بن أبي طالبٍ رضي الله عنه، والشاذلية نسبة إلى الإمام أبي الحسن الشاذلي رحمه الله ورضي عنه.

1- الشيخ الإمام أبو الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني رضي الله عنه شيخ الطريقة الأحمدية الكتانية في المغرب (1327 هـ).

وبالرغم من صغر سنه برع في كثير من العلوم بحيث فاق أهل عصره من فحول العلماء ومنهم والده الشيخ عبد الكبير، فكان والده ينقل عنه في كتبه، وله اليد البيضاء في جمع القبائل وعمل على توحيدهم ومُصالحتهم بعد نزاعاتٍ دامت سنوات ثم عمل على توحيد كلمة العلماء في مدينة فاس وغيرها، وعمره وقتها يقرب من 27 سنة.

وبعد توحيد الكلمة أجبر الملِك على التنازل عن عرشه بمعنى خلعوه وبايعوا غيره بشروط أقرَّها هو والعلماء، ولكن الملك الجديد انقلب عليهم وتعاون مع الاحتلال ضدهم فقاد الشيخ الكتاني ثورة ضد الاحتلال الفرنسي، والشيخ في أوائل الثلاثينات من عمره حتى قضى شهيدًا سنة 1905 م تقريبًا (1327 هـ)، وعمره 36 سنة رضي الله عنه.

ومع كل أعماله التربوية والسياسية لخدمة دين الله تعالى، فقد ترك 300 كتابٍ بين رسائل مهمة في علومٍ لم يتكلَّم فيها أحدٌ قط قبله وبين مجلدات، وجدد الطريقة الكتانية الأحمدية الشاذلية وربى آلافًا من أهل بلده وغيرهم، والحديث عن مناقبه وعلمه يطول رضي الله عنه وجزاه خيرًا.

2- الشيخ عبد الكريم الخطابي (1962م):

ولد في بيت علمٍ وجهاد، كان عظيم الهمة، وعلى درجة كبيرة من الشجاعة الفائقة والزهد الشديد، ولا سيما في المال، وكان قد اعتكف عدة سنوات، يجاهد نفسه بالتربية الروحية، حتى يُصفِّيَ نفسه من عيوبها ومن تعلقها بالدنيا وأعراضها الفانية.

وقد تربى على محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والصالحين، ثم خرج بعد الاعتكاف ليبدأ مرحلة طويلة من الكفاح ضد الإسبان، بأسلحة متواضعة، وذات مرة سأله أحد مريديه: لو طلبتَ المساعدة والسلاح من دولة كبرى؟ فأجاب: لقد طلبتُ المساعدة، وستصل في الوقت المناسب، إنها قوة الله وكفى بالحق ناصرًا.

فبايعه الجميع قائلين له: سرْ على بركة الله تعالى، وقد نفى الشيخ الخطابي أن يكون لديه طموح للسلطنة على المغرب.

حارب رضي الله عنه ببسالة وعزم وصبر ولم يُهزَم إلا بعد تكاثُف الجيوش الإسبانية والفرنسية، وحمل الراية بعده مريدوه، وقال عنه شكيب أرسلان: لا نبالغ إذا قلنا إن الأمير – وهو مسلم صوفي – محمد عبد الكريم هو بطل الإسلام، وأسدُه الضرغام والعلم المفرد، الذي سار بذكره القاصي والداني، لا بل إذا نظر الناس بعين الإنصاف يجدونه بطل العصر الحاضر بين جميع الأمم لا بين المسلمين وحدهم.

وقالوا عنه أنه هو الرجل الذي حيَّر دولتين عظيمتين بحفنة من الرجال.

من كتاب (الأمير محمد عبد الكريم الخطابي بطل الشمال الأفريقي، محمد عبد المنعم المحامي ومحمد عبد الوارث الصوفي).

6- الصومال:

برز في هذه البلاد الشيخ السيد محمد عبد الله حسن (1920م) وهو أبرز خلفاء شيخ الطريقة الصالحية الشاذلية، وقد قاد بلاده من نصرٍ إلى نصرٍ أكثر من عشرين عامًا.

واتجه جهاده منذ البداية إلى محورَين:

الأول: ديني لنشر مبادئ الإسلام علمًا بالعقيدة والفقه، وتربيةً صوفيةً حسب الطريقة الصالحية الشاذلية لمقاومة الجهل وعمليات التبشير[20].

الثاني: جهادي عسكري يقوم على التدريب والجهاد وتعليم أحكام الجهاد للوقوف في وجه القوى الأوروبية.

وظل هذا الشيخ يحارب ويحارب قواتِ أكبر ثلاث دول في القرن التاسع عشر وهي بريطانيا وإيطاليا والحبشة، ومعهم بعض القبائل المحلية التي وقفت ضده وتعاونت مع الاستعمار.

ونلفت النظر أن الشيخ عمل على توحيد القبائل الصومالية روحيًا ودينيًا قبل توحيدها عسكريًا، وذلك من خلال نشر أتباعه لتعليم الناس وربطهم بالطريقة الصالحية الشاذلية، واستطاع أن يجعل من رابطة الطريقة أقوى من رابطة العصبية القبلية. من كتاب المسلمون والاستعمار الأوروبي لأفريقيا، عبد الله إبراهيم.

7- موريتانيا:

مصطفى بن محمد فاضل الشنقيطي أبو الأنوار والمعروف بـ(ماء العينين الشنقيطي)(1910م)

يُعدُّ من أشهر علماء عصره ومن أعظم أئمة التصوف، له مشاركة في التفسير والحديث واللغة والفلك والقانون وألَّف المؤلفات الكثيرة في تلك العلوم منها

20 تمامًا كما يفعل مشايخنا في عكار وشمال لبنان، إنهم يتفانَون في نشر العلم والحلقات وحضرات الذكر الهادفة !!! والحمد لله أنهم لم يتركوا للخلافات مكانًا وكذلك تلاميذهم مثلهم فتراهم منشغلين ليل نهار بالدعوة!!! جزاهم الله خيرًا.

(مبصر التشوف إلى منتخب التصوف) و(مغري الناظر والسامع على تعلم العلم النافع)، وسلك ودخل الطريقة القادرية الصوفية حيث تربى على يد والده.

قال صاحب معجم الشيوخ أبو الحسين الصيداوي: وأحوال الشيخ ماء العينين وأخباره في العلم والطريق والسياسة واسعة طويلة تحتاج إلى مؤلَّفٍ خاص.

اتصل الشيخ في بداية حياته السياسية بحكام مراكش لتكوين جبهة إسلامية من أجل محاربة موجات التوسع الأوروبي في المغرب العربي، فأحسَّ الفرنسيون بخطورة هذا الشيخ وزاد تخوفهم منه عندما اغتيل أحد كبار القادة الفرنسيين حيث اتهم الشيخ بالتخطيط لهذا العمل.

من كتاب أضواء على الطرق الصوفية في القارة الافريقية، عبد الله إبراهيم.

فوجد الشيخ أن الثورة ضد الاحتلال قد آن أوانها، فأعلن صيحة الجهاد صريحة، وقاد أتباعه في ثورة كادت تعم المغرب كله بعدما زحف نحو فاس لولا أن حشد له الفرنسيون القوى ومنعوه من الوصول إليها واستشهد رضي الله عنه.

واستمر النضال بشكلٍ أعنف وأشد على يد ابنه أحمد الهيبة (1918م) الذي نشأ في حجر والده وتربى عليه وأخذ عنه العلوم كالفقه والعقائد وعلم التصوف وغيرها.

فلما استشهد أبوه الشيخ ماء العينين اجتمع المريدون والعلماء وشيوخ القبائل وسكان الحواضر وبايعوا ابنه أحمد الهيبة، فأخذ يبثُّ فيهم النصح والعلم والدعوة إلى نصرة الإسلام فاجتمع له جيشٌ ضخمٌ، وحقق انتصارات مذهلة على الفرنسيين الذين حشدوا له جموعًا كبيرةً، ومعهم بعضُ الخونة أتباع الاحتلال، وتم القضاء على هذا الزعيم الصوفي الذي أبى إباءً كليًا أن ينقاد للاحتلال بعدما حاول رجال الاحتلال أن يُغروه ويطمعوه بأن يكون خليفة كما أطمعوه بالمال والراحة وغيره فأبى.

ووصفه معاصره المؤرِّخ أحمد الشنقيطي بقوله: هو العلامة الوحيد، كريم الأخلاق، كثير الإنفاق، متى بلغ الإنسان قريبًا منه يسمع دويَّ مريديه يذكرون الله تعالى ويُنشدون، ولولا رداءة سلاحهم لدافعوا الفرنسيين سنين كثيرة.

8- السنغال:

الحاج الشهيد عمر الفوتي التكروري (1864م)

درس اللغة العربية وحفظ القرآن الكريم ودرس صحيح البخاري ومسلم، ثم تاقت نفسه واشتاقت – كما يقول المؤرخون – للانضمام في سلك أرباب الكمال وصرف الهمة إلى تهذيب النفس، فاجتمع مع أحد خلفاء الطريقة التيجانية وأخذ الأوراد اللازمة، وجاهد نفسه، وصار ذا حالٍ وهمة عالية فصار شيخًا للطريقة، وألَّف كتاب

(رماح الرحيم على نحور حزب الرجيم)، واشتهر أمره، فوفد إليه الناس من كل صوبٍ ينتفعون بمواعظه ويتأدبون بما يعلمهم من الآداب الشرعية.

وقد حدد الشيخ عمر أهدافه وتتلخَّصُ في: مقاومة الوثنية، ونشر الإسلام، والوقوف في وجه المتكالبين على السلطة والمتعاونين مع الاستعمار.

وبذل ما أمكن من جهدٍ من أجل تحقيق وحدة البلاد الأفريقية لتقليص المد الأوروبي إلى قلب أفريقيا الغربية.

ولما كثر أتباعه وتلامذته شمَّر عن ساعد الجهاد وأخذ يشجعهم على حمل السلاح، واتخذ من زاويته الكبرى مقرًّا روحيًا وعسكريًا له.

كما شيَّد حصنًا وجنَّد جيشًا، واستطاع به أن يسيطر على قسمٍ كبيرٍ من السنغال واعترف الحاكم الفرنسي بذلك.

وبدأت معاركه معهم، فعملوا على مطاردته في إحدى المرات فلجأ إلى مغارة، فأطلق الفرنسيون الدخان عليه حتى اختنق.

(أضواء على التصوف في القارة الأفريقية/ حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في أفريقيا الغربية/ المسلمون والاستعمار الاوروبي لأفريقيا).

استشهد الشيخ الصوفي عمر ولم يتحققْ حلمه في بناء دولة إسلامية، ولكنه كان أكبر ممهِّدٍ لمَن أتَوا بعده من الزعماء الأفريقيين الذين قاوموا الاستعمار الفرنسي لأنه كان يمثل الطموح والحماس الصوفيَّيْن.

وأكمل مسيرته من بعده الشيخ السيد أحمد حبيب الله بامبا (1927م) الذي درس الشريعة الإسلامية في سنٍ مبكرة، ثم انتسب إلى الطريقة وعاش حياة الزهد والتقشُّف، ولمس الناس فيه كرهَه الشديد للاستعمار وتحدَّثَ عنه الأوروبيون أنه رجلٌ متعصِّبٌ.

فانتشر صيته واشتهر، فتوافد عليه أبناء القبائل وزعماء ثائرون على أن يخلصهم من الاحتلال الفرنسي ومن الحكام الذين عجزوا عن حمايتهم.

فانتشرت شائعات بأن الشيخ أحمد يشتري السلاح وينظم الأتباع وأنه يخطط للقيام بثورة وأنه يحمل أفكارًا وينشرها ضد الكافرين والمستعمرين، ولهذا نُفي من بلده عدة مرات وأعيد بشرط أن يوقف نشاطه وبقي في بلده حتى مات، ولكنه أسس ووضع حجر الأساس تنظيمًا وإعدادًا لمَن أتى بعده.

وكان رحمه الله تعالى عالِمًا جليلًا، علَّم الناس دينهم وأرشدهم ويكفيه هذا جهادًا، وترك مؤلفات منها (حدائق الفضائل) و(الجوهر النفيس) و (مالك الجنان) و(سفينة الأمان).

9- نيجيريا

الشيخ عثمان بن فودي (1817م)

نشأ الشيخ عثمان على حب العلم فدرس التوحيد والفقه وغيرها من العلوم، وكان مولَعًا بالعبادة والذكر ثم مال بكليته إلى التصوف علمًا وذوقًا ففتح الله عليه، حيث سلك الطريقة القادرية على الشيخ جبريل بن عمر أحد أقطاب الطريقة القادرية في أفريقيا الغربية.

أخذ بالتدريس والوعظ وذاعت شهرته في آفاق البلاد، ثم أخذ التصوف عن شيخه وأستاذه محمد المختار القادري طريقةً الذي قال له: أخذت علم التصوف الذي للتخلُّق وعلم التصوف الذي للتحقُّق.

ثم بعدها صار يربي المريدين ويعلمهم ويرشدهم.

كان يقوي الروح القتالية لدى أتباعه وتلامذته الذين نشرهم وبثهم بين القبائل الوثنية التي رحبتْ بجماعات القادريين، ودخل الناس أفواجًا في الدين الحنيف.

كان جهاده رضي الله عنه في البداية بالقلم والكلمة المسموعة، ونادى بضرورة مقاتلة البغاة المستعمرين.

ثم انتقل إلى الجهاد بالسيف سنة 1804م بعدما رأى رؤيا تضم سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ومعه الصحابة والسيد الشيخ الرباني عبد القادر الجيلاني الذي قلَّده سيف الحق وطلب منه إعلان الجهاد ضد أعداء الله تعالى.

وتوالت انتصاراته وعادت إماراتٌ عديدة إليهم على يد جيشٍ من أتباعه وتلامذته.

وترك تراثًا عريضًا واسعًا يدل على سعة علمه وعلو همته منه (السلاسل الذهبية للسادات الصوفية) و(السلاسل القادرية للأمة المحمدية) و(أصول الولاية وشروطها) وله أسانيد في الطريقة الخلوتية وأوراد الشيخ أبي الحسن الشاذلي، وله بعض القصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم وبثِّه الأشواق لزيارته، وله قصيدة طويلة يتوسل بها بسلطان الأولياء سيدي عبد القادر الجيلاني وكتب كتابًا في مشروعية التوسل (رفع الاشتباه في التعلُّق بالله وبأهل الله).

وكان معه في رحلة الجهاد أخوه وتلميذه الشيخ عبد الله بن فودي وهو النحوي الصوفي والفقيه، وكذلك كان معه في كفاحه ابنه محمد بلو وكان يمضي نهاره في الدعوة والجهاد وليله في العبادة والتأليف، فكتب في علوم كثيرة منها الطب والفقه والتصوف منها (النصيحة الوضيئة في بيان أن حب الدنيا رأس كل خطيئة) و(مفتاح السداد بشأن الأربعة الأوتاد).

وخلاصة القول فإن الشيخ عثمان وأخاه عبدَ الله و ولدَه محمدًا يُعدُّون من الرجال العباقرة اليوم في نيجيريا وتفتخر هي بهم رضي الله عنهم وجزاهم خير الجزاء.

10- مالي:

حمى الله الشريف (1942م)

ولد في مالي سنة 1886م، وتلقى علوم الشريعة والحقيقة على علماء منطقته، وكان مرهف الحس، شديد الذكاء، قوي الحجة، ذا مظهر مهيب، فأقامه شيخُه شيخًا للطريقة التيجانية الشريفية بعد أن اعتكف وتهذَّبَتْ روحُه وتعبَّد في رباطه مدة، فخرج من بيته لدعوة الطبقة الشعبية، فكثر تلاميذه وانطلق في الجهاد بمحاربة خصومه من المؤيدين للفرنسيين.

وهكذا ظل يجاهد ضد الاحتلال حتى نُفيَ مرتين، وبعدها استأنف الجهاد حتى سُجن ومات سجينًا سنة 1942م.

قال أحد القادة الفرنسيين: عمدنا إلى الحكم بالسجن على 600 من أتباع هذ الطريقة، وحكم بالموت على 13 منهم اثنان من أبناء الشيخ حمى الله الشريف.

11- الهند

نذكر قولة أبي الحسن الندوي التي تؤصِّلُ دور الصوفية في تاريخ الهند القديم والمعاصر: فقد كان على رأس كل حركةِ جهادٍ وكفاحٍ شخصيةٌ روحية قوية. من كتاب ربانية لا رهبانية للندوي.

وهو يذكر أن العهد الإسلامي في الهند بدأ بهؤلاء الصوفية، نذكر منهم:

الإمام أحمد الفاروقي السرهندي (1624م) رضي الله عنه، رائد ثورة الإصلاح والتجديد في الهند، وهو مجدد الألف الثاني، ولم يكن له مثيلٌ له في عصره في علم الحقائق.

وصفه الإمام بديع الزمان النورسي بقوله: بطل الشريعة والحقيقة، ويقول عنه شكيب أرسلان: (فهو في هذا المشرب من الأفراد الأفذاذ ربما لا يوجد نظيره في المتأخرين، فقد كان شيخ الطريقة وزعيمًا روحيًا، كما كان مجاهدًا وقائدًا) من كتابه حاضر العالم الإسلامي.

ومن مآثره وأعماله الجليلة أن الحكومة المغولية التي كانت تحكم بالبراهمة والوثنية صارت تدين بدين الإسلام بفضل الله تعالى وجهد الشيخ أحمد الفاروقي المجدد.

وقد ربى تلاميذ كبارًا الواحد منهم بآلاف، فابنه محمد معصوم كان على قدمه علمًا وعملًا وجهادًا حتى أن عدد الذين أسلموا على يديه بلغوا قرابة ال 900 ألف، وكان منهم 7 آلاف مرشد مربٍّ.

وبالجملة فالشيخ أحمد يحتاج إلى مجلدات طوال لذكر مناقبه ومنهجه وحياته الحافلة بخدمة دين الله تعالى.

ومنهم محمد أورنك عالم كير (1707م) كان ثمرة من ثمار ودعوة الشيخ أحمد الفاروقي، وتولى السلطنة وهو من سلالة تيمورلنك الشهير، وأقام في الحكم خمسين سنة وفتح بلدانًا كثيرة، ويعده المؤرخون أعظم امبراطور مغولي مسلم صوفي، بلغتِ الدولة في عهده قمة مجدها.

وقد أجمع المؤرخون على صلاحه وزهده، وقال صاحب سلك الدرر: المجاهد في سبيل الله، العالم الصوفي العارف بالله، الملك القائم بنصرة الدين الذي أباد الكفار في أرضه وقهرهم، وأيد الإسلام وأعلى في الهند مناره.

ومنهم: شاه ولي الله الدهلوي (1762م)

الشيخ العارف بالله النقشبندي، والذي يُعدُّ رأس العلماء المجاهدين في سبيل دينهم ووطنهم، بما قام به من مجهود عظيم في تنبيه المسلمين والحكام إلى خطر الإنكليز. من كتاب تاريخ الإسلام في الهند.

قال الإمام عبد الحي الكتاني في فهرس الفهارس: (أحيى الله به وبأولاده وتلاميذهم علم الحديث والسنة بعد مواتها في الهند).

وله رضي الله عنه مؤلفات كثيرة مهمة رائعة منها: البدور البازغة، والقول الجميل في بيان سواء السبيل وكلاهما في التصوف.

وكان له ولتلاميذه من بعده الفضل في التأثير وتغيير مجرى الحياة بإذن الله في بلاد الهند، وبهم حفظ الله دينه في تلك البلاد.

ومنهم: أحمد عرفان الشهيد

أحد تلامذة الإمام ولي الله الدهلوي والسالكين على يديه، تلقى علم التصوف من شاه عبد العزيز الملقب سراج الهند (1824م) حيث لازمه في دلهي بضع سنوات، اكتسب فيها العلوم الباطنة والظاهرة في علوم الشريعة والحقيقة، فارتقى إلى منازل ودرجات كبيرة. من كتاب إذا هبت ريح الإيمان.

وبعد أن نال من شيخه الإجازة العالية، ألَّفَ في التصوف كتاب الصراط المستقيم، ثم قام بالدعوة والإرشاد فذاع صيته في الهند وخصوصًا بين العلماء والشيوخ والمريدين.

وبعدها أخذ السيد الشيخ أحمد يُعِدُّ العِدة لإعلان الجهاد على جبهتين:

الأولى: مقاومة خطر الزحف الإنكليزي على الهند.

الثاني: تحرير المسلمين القاطنين في إقليم البنجاب من نير طائفة السيخ.

فتوزعت أعمال الشيخ أحمد بين التربية الروحية والدعوة، وبين اشتغاله بالأمور العسكرية.

فكان في مقدمة الجيش العلماء والفضلاء وشيوخ الزوايا فوصل معهم إلى غزنة وأقام بجوار ضريح ومشهد السلطان محمود الغزنوي فاتح الهند وتركستان، حيث انتظره عدد كبيرٌ فبايعوه وانضموا لجيشه، فالتقى بجيشٍ من السيخ يدعمه الإنكليز، ودارت بينهما معركة قاسية قاتل جيشُه فيها ببسالة وسقط الشيخ أحمد شهيدًا.

من كتاب إذا هبت ريح الإيمان والعالم الإسلامي والاستعمار.

ومنهم: محمد إقبال (1938م)

هو الذي كانت له اليد الطولى في قيام دولة باكستان، فقد كان أول مَن نادى بضرورة انفصال المسلمين عن الهندوس.

وكان صوفيًا وشاعرًا بارعًا وسياسيًا ذكيًا وفيلسوفًا بصيرًا.

كان يتفطر أسًى ولوعة على حال المسلمين خصوصًا الشباب ويقول: إن الشباب المثقف فارغ الأكواب، مظلمُ الأرواح، يبني الأجانب في ترابهم الإسلامي كنائس وأديارًا.

ويقول للعرب: أسفًا على الخمول والجمود يا عمار البادية، كنتم أمة واحدة فأصبحتم أممًا.......

ويقول: المسلم القوي الذي كان تكبيره يذيب الأحجار، انقلب وجِلًا من صفير الأطيار......

له مقالات وديوان شعر يستنهض به الأمة للعودة إلى قوتها العلمية والروحية ولإعادة ريادتها، وبالجملة كان من افراد رجال الهند في هذا العصر.

12- روسيا:

في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديَّين (17 -18) خاض أصحاب الطريقة النقشبندية الحرب ضد الغزاة البوذيين، وعملوا في الدعوة إلى الإسلام في تلك الأرض، وكان لهم الفضل والسبق في ذلك.

وفي نهاية القرن 18 كانت النقشبندية في القوقاز المحرِّك الأساسي لمقاومة الغزو الروسي.

وأول صوفي داعٍ لها في القوقاز الشيخ منصور أوشورما وهو أول من خاض الجهاد ضد الروس، وحثَّ على الحرب معه الشيشان والداغستانيين، وبعد أن أحرز انتصارات باهرة، أسره الروس وحكم عليه بالسجن المؤبد ومات في سجنه (1793م). من كتاب المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفياتي وحاضر العالم الإسلامي. وربانية لا رهبانية.

وكان المرشد الشيخ النقشبندي الشهير بعد الشيخ منصور هو:

الإمام شامل الداغستاني وهو على نمط الأمير عبد القادر الجزائري، وكان البطلان الصوفيان الكبيران قد التقيا في إحدى المناسبات في مصر.

كان الإمام شامل عالمًا دينيًا ومرشدًا مربيًا، ويتمتع بعبقرية عسكرية عظيمة نادرة في إدارة الحروب وتحرُّك الجيوش. بطولات من أرض القفقاس.

ومع ذلك كان يتواضع ويقول عن نفسه (أنا شامل أحقر المحاربين) من كتاب صقور القفقاس.

تقلَّد الشيخ شامل أمور الجهاد وحقق انتصارات عظيمة على الروس وألقى الرعب في قلوبهم، وجلاهم عن قسم كبير من البلاد، وكانت عُدَّته كما ذكر المؤرخون 60 ألف رجل يتحصَّنون بجبال داغستان المنيعة.

وفي ظل ظروف التفرق الداخلي وتأييد بعض العملاء للروس، نُفيَ الإمام شامل إلى المدينة المنورة وتوفي بها سنة (1871م).

ولنختمْ بهذه الأنشودة التي كان يرددها شامل دائمًا وهي تدل على عمق تصوفه:

يا الله، يا عباد الله، يا أهل الله ساعدونا باسم الله.

مُدُّونا بعونكم، فربما ننجح برحمة من الله.

يا أقطاب، يا متصلون، يا مختارون يا أسياد.

يا الله بجاه أوليائك، أعطنا ما نتمنى من غايات.

بجاه طه سيد الأكوان، وبجاه علي........ باسم الإله الذي اصطفاكم والذي منحكم الأنوار.

وكان شامل يقول لتلاميذه المحاربين في الجبال: أيها الجبليون علينا أن نحارب، لا وقتَ لدينا لتأليف الأغنيات ولا لرواية القصص، فلنجعل الأعداء يغنون الأغنيات فينا، وستعلِّمهم سيوفُنا كيف يفعلون ذلك.

امسحوا دموعكم واشحذوا أسلحتكم[21].

وممن حارب مع الشيخ شامل رفيقه غازي مولى النقشبندي، والشيخ الحاج قاسم الملقَّب بالدرويش، وكان في رؤوس الجبال يعظ وينصح ويحرِّك القلوب تشويقًا للشهادة في سبيل الله تعالى.

وذات مرة قال الحاج قاسم لشخصٍ يحاوره: .... قلتُ لك إني درويش، هل يمكن أن يكون للدرويش بيت؟!! قبة السماء لحافي، ووجه الأرض سريري، وكلُّ مكان منزل، وكلُّ ناحية موقد....

ويريد بذلك أن يوضِّح أن الدراويش ليسوا كسالى ولا اتكاليين بل أصحاب هممٍ عالية وتضحياتٍ ساميات.

وهكذا خفَّ نشاط الطريقة النقشبندية فترة ثم برز على يدي شيخ الطريقة علي خان الذي اشتهر بورعه الشديد، وأصبح زعيم المغاوير وهو على رأس مريديه.

وظل يجاهد حتى استشهد سنة (1917م) وبعد اسشهاده اضطُهد أصحاب الطريقة بعمليات دامية وطويلة.

وكذلك لاقت الطريقة القادرية نجاحًا واسعًا في الدعوة والجهاد، فبفضل أهلها بعد الله تعالى دخل الإسلام بين قبيلة الأنغوش في نهاية القرن 19م.

وكان مريدو الطريقة القادرية قد حملوا السلاح ضد الروس وجاهدوهم، حتى اعتقل شيخ الطريقة كونت حجي وسُجن وقُتل في سجنه سنة (1867م).

وقد اشتركت الطريقة القادرية والنقشبندية في الثورة الكبرى التي أدمتْ داغستان وبلاد الشيشان في الربع الأخير من القرن 19، وقاست كلتاهما من القمع الشديد واستطاع بعضُ المريدين اللجوء إلى الجبال العالية وشن حرب المغاوير سنة 1947م ، مما دعا الروس أن يتهموهم بأنهم مسلمون متعصبون في حين أنهم قاموا يدافعون عن عقيدتهم وعرضهم وشرفهم ووطنهم. من كتاب احتلال الروس للقوقاز.

تُجمع المصادر السوفياتية أن الجماعات الصوفية هي منظمات جماهيرية قوية البنيان، ملتحمة بانضباط حديدي وإطاعة عامة من المريدين لأسيادهم المشايخ، وهي أي الطرق الصوفية ليست مجرد جماعات تقشفية منفصلة عن الدنيا، بل غدتْ ملاذ جميع المؤمنين[22]، ويتركز نشاطهم بوجهٍ عام حول الأماكن المقدسة وهي المساجد والزوايا وقبور أولياء صوفيين شهداء في معارك ضد الغزاة الروس.

---

21 ما أحوجنا في زماننا هذا إلى هذه النصيحة الغالية. وليسمعْ مَن يتغنون بالتصوف ليل نهار وجعلوا منه احتفالاتٍ وموالد فقط.

22 وصف رائع للطرق الصوفية بأنها في صلب الحياة بل روح الحياة، والفضلُ ما شهدتْ به الأعداءُ.

وتوضحُ تلك المصادر أن الأماكن الصوفية المقدسة تشبه طائر العنقاء الأسطوري الذي يبعث من رماده حيًا باستمرار. من كتاب احتلال الروس للقفقاس، والمسلمون المنسيون.

13- تركيا:

الإمام بديع الزمان النورسي (1958م)

الإمام المجدد صاحب رسائل النور، وشهرته تغني عن التعريف به وهو الذي تنعم تركيا اليوم ببركة جهاده ودعوته رضي الله عنه.

عاش عمره في جهادٍ متواصلٍ مع نفسه وأعداء دينه، وكان ورعًا زاهدًا متقشِّفًا.

يقول عن بداية سلوكه طريق التصوف: إنني قرأتُ كتاب فتوح الغيب للغوث سيدنا عبد القادر الجيلاني، فجذبني قوله (أنت في دار الحكمة فاطلب لك طبيبًا) ففتح ذلك الكتاب عيني وعمل في نفسي عملياتٍ جراحيةً شديدةً، فاستمعتُ لورده ومناجاته فاستفضتُ كثيرًا. من المكتوبات من رسائل النور.

وكان الشيخ النورسي يرى أن المرور من الظاهر إلى الحقيقة – وهما لا ينفصلان – على وجهين:

أحدهما: أن يدخل الطريقة فيقطع المراتب بالسير والسلوك.

الثاني: أن يمضي إلى الحقيقة مباشرة، وهذا طريق قصير عالٍ خاصٌ بالصحابة والتابعين.

وسئل عن أصل الطريقة فقال: إن رأس هذه الطرق المختلفة ومنبع هذه الجداول وشمس هذه السيارات هو القرآن الكريم..... إذا كانت حدثت أمور جديدة من نوع أوراد الطريقة وأذكارها ومشاربها لا تكون بدعة، وإن سماها بعضهم بدعة حسنة، بشرط أن لا تخالف السنة السنية. المكتوبات من رسائل النور.

ويقول أيضًا: إن الدليل على حسنات الطريقة أن أهلها يحفظون إيمانهم في زمن هجوم أهل الضلالة، فإن مخلِصًا عاديًا صاحب طريقة يحافظ على نفسه أكثر من متفنِّنٍ صوريٍّ ظاهريٍّ، وينقذ إيمانه بواسطة ذوق تلك الطريقة ومحبة أولئك الاولياء.... ومَن لم يكن له حصة في الطريقة ولم ينهضْ قلبه إلى الحركة ولو كان عالِمًا محقِّقًا فقد أشكل أن يحافظ على نفسه. المكتوبات من رسائل النور.

ومن مواقفه المشهودة أنه دعا إلى مهاجمة الجيوش الاستعمارية حين دخلت استانبول بعد الحرب العالمية الأولى، وكشف للأهالي خفايا ودسائس الإنكليز، ومحاولتهم لإفساد الحياة المعنوية لدى المسلمين، ووقف بصلابة في وجه الاتحاديين الذين خططوا في سياساتهم لمحاربة كل مظاهر الدين الإسلامي واللغة العربية.

ولا نستطيع في هذه العجالة اختصار حياته رضي الله عنه فإنه كان مجددًا ومجاهدًا وشخصية فريدة في عصرنا، وكانت سيرة حياته محط تحليلٍ لكثيرٍ من الدارسين، فكتبوا فيها رسائلَ وأطروحاتٍ وأبحاثًا، واستنبطوا منها مناهج دعوية وجهادية، وما زال نور رسائل النور يضيء في تركيا وبلاد الشام ومصر والعالم العربي والغربي.

14- فلسطين:

كان أول مَن أطلق صيحة الجهاد في فلسطين على الاستعمار الإنكليزي هو الشيخ الصوفي فرحان السعدي الذي ينتمي إلى عائلة السعدية الجيباوية الصوفية المشهورة في بلاد الشام، ولكن سرعان ما ألقي القبض عليه مع مريديه فأعدمه الاستعمار وهو صائمٌ وعمره 80 سنة.

أما رائد الكفاح في فلسطين في هذا العصر فهو:

الشيخ محمد عز الدين القسام (1935م)

كان والده الشيخ عبد القادر القسام من أعيان بلدة جبلة السورية مشهورًا بتقواه وصلاحه ومن المشتغلين بالتصوف.

درس الشاب محمد عز الدين في الأزهر في مصر، ثم عاد إلى مدينته فسلك على والده طريق التربية الروحية بهمة عالية لا تلين وإقبالٍ شديدٍ على الله تعالى.

وقد امتاز عز الدين القسام منذ صغره بالميل إلى الانفراد والعزلة، الأمر الذي سيؤثر في مستقبله وسيجعله أكثر قدرة على فهم ما يدور حوله من أحداث.

وبعد وفاة والده قام مقام والده وصار شيخَ الزاوية الشاذلية في جبلة، وحينها اعتكف على قراءة كتب القوم أي كتب التصوف ووعظَ الناس ودرَّسهم.

وعند احتلال إيطاليا لليبيا قاد مظاهرة حاشدة طافت شوارع البلدة استنكارًا، وخلال الحرب العالمية الأولى كان الشيخ القسام قد وثَّق علاقته بمشايخ الجبل وأبرزهم المجاهد الكبير الشيخ صالح العلي (1950م).

ولما احتل الفرنسيون ساحل سوريا قاومهم بشدة، ونادى في تلامذته أن الجهاد أصبح واجبًا، فأصدرت السلطات الفرنسية عليه حكم الإعدام فبقي متخفيًا فترة من الزمن ثم عاد سنة 1920 إلى فلسطين، وهناك أخذ يشجع على الجهاد على المنابر، وينبه إلى الخطر الصهيوني، ويوضح أن جهاد النفس مقدم على جهاد العدو.

قلت: لأن مَن هزمتْه أعضاؤه، تهزمُه أعداؤه.

وكان يمزج وعظه الديني بأحاديث ومأثورات تبين المكانة العظمى للشهيد في الجنة، وكذلك فإن الجهاد بالمال لا يقل أهمية عن الجهاد بالنفس، وحتى يبرهن

على صدق أقواله باع بيته الوحيد واشترى بثمنه سلاحًا للمجاهدين. من كتاب الإسلام وحركات التحرر.

ولا بد من الإشارة إلى أن عز الدين القسام انفرد بتنظيم الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف في حيفا على نحو خاص في إقامة الزينة. كتاب عز الدين القسام.

وقد ألَّفَ هو ومحمد كامل القصاب كتابًا بعنوان (النقد والبيان) انتقدوا فيه البدع والانحرافات لمن ادعى التصوف وهو جاهلٌ به، ووضَّحوا فيه معنى التصوف الحقيقي من كلام الصوفية العلماء المحققين.

واستشهد هذا الشيخ الجليل بعد حصار الإنكليز له في معركة استمرت عدة ساعاتٍ، وترك القسام للأمة عشرات من الرجال المخلصين قاموا بالدور الرئيسي في الثورة الكبرى في فلسطين سنة 1936م.

ومن المعاصرين أيضًا الشيخ محمد هاشم البغدادي القادري رحمه الله ورضي عنه، جاهد ضد الاحتلال الصهيوني في فلسطين، وانتقل الى الرفيق الأعلى سنة 1995 م.

15- سوريا:

إن بلاد الشام (فلسطين- سوريا- الأردن- لبنان) أرض الرباط، وفيها يقول سيدُنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: أهل الشام سوط الله في أرضه [رواه السيوطي في الجامع الصغير]، ويقول: ألا إن عقر الإسلام بالشام [النسائي في السنن]، ويقول: إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم، لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم مَن خالفهم [الترمذي وابن ماجه والإمام أحمد].

ومن هؤلاء الظاهرين على الحق، القائد الأول للثورة السورية الكبرى هو:

الإمام محدِّث الدنيا الشيخ محمد بدر الدين الحسني (1935م)

كان محدِّث الدنيا وعلامة زمانه، وفريد أوانه، فقيهًا زاهدًا عارفًا بالله، ومدقِّقًا ومحقِّقًا في شتى العلوم، وبرع في العلوم الكونية كالفيزياء والكيمياء والرياضيات والهندسة والفلك وغيرها، وكان متقنًا للعلوم الشرعية من فقه وتفسير وحديث ...الخ، كما كان غوَّاصًا في علم التصوف، وعليه قرأ شيوخ التصوف في دمشق.

وعند الاحتلال الفرنسي كان الشيخ رضي الله عنه يتنقَّلُ بين البلدات مشجعًا على الجهاد، ويقابل الثوار ويحمسهم ويضع لهم الخطط الحكيمة، فكان الأب الروحي للثورة والمجاهدين.

ومنع الشيخُ الناسَ من دفع الضرائب للفرنسيين ومنعهم من التعامل معهم، وأعلن أن الجهاد فرضُ عينٍ على كل من يستطيع حمل السلاح، وكان كثيرٌ من الثوار ومنهم الشهيد حسن الخراط يقابلونه كل يومٍ بعد الفجر يأخذون منه تعليمات الثورة. من كتاب تاريخ علماء دمشق.

وكانت له دروسٌ في بيته خاصة شرح فيها كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، والرسالة القشيرية، وإيقاظ الهمم شرح الحكم لابن عجيبة، ولطائف المنن للإمام الشعراني كلها في التصوف، وكانت له دروس عامة في الجامع الأموي بدمشق[23].

وله تآليف كثيرة منها الأنوار الجلية في شرح بردة مدح سيد البرية.

قال عنه مفتي الديار المصرية الشيخ محمد بخيت المطيعي عندما زاره في دمشق: لو كان الشيخ عندنا في مصر لحملوه على الأعناق، ولَما تركوه يمشي على الأقدام.

وتميَّز رضي الله عنه بالجود والسخاء والزهد، والحزم والذكاء الفائق العجيب مع مباسطة وتواضع.

ونذكر على عجل بعض الأسماء التي لمعت من العلماء الربانيين الذين ساهموا في الدفاع عن دين الإسلام والمسلمين وأرضهم في سوريا:

الشيخ محمد الشريف اليعقوبي الشاذلي الخلوتي رحمه الله تعالى (1943م) الذي قاد كتيبة الشبان المغاربة في معركة ميسلون.

الشيخ محمد بن يَلِّس التلمساني الشاذلي رضي الله عنه (1927م) الذي حارب الفرنسيين وكان مرًّا عليهم رغم كبر سنه، ولذلك سُجن في سِجن القلعة وترك عددًا كبيرًا من التلاميذ والمريدين النجباء، منهم:

الشيخ محمد الهاشمي الشاذلي رضي الله عنه (1963م)، شيخ الشاذلية في الشام المحروسة الذي كان يمضي جزءًا من وقته في التدريب على السلاح، مع ضعف جسمه وكبر سنه مع أعباء الدعوة إلى الله وتعليم العلم وتربية المريدين.

الشيخ محمد صالح كيوان والشيخ الأمير عز الدين الجزائري حفيد الأمير عبد القادر الجزائري، الذي دوَّخَ الفرنسيين في مدينة الغوطة قبل استشهاده سنة 1927م.

---

23 الكلام عن الشيخ بدر الدين ذكرني بمشايخنا، فهم سائرون على قدمه ليس لديهم وقت فراغٍ لا ليحضروا عزاءً ولا ليحضروا مظاهرةً أو لقاءً سياسيًا!!! وهذا جيد فوقتهم ضيِّقٌ لأنه مليءٌ بحلقات العلم والإرشاد وتفقُّد أحوال الطلاب وعامة الناس !!! وتراهم ساهرون على وحدة الصف بين المسلمين!!! والحمد لله على وجودهم، فعلينا بالإيمان بالقدَر خيره وشره!!!

كذلك كان للشيخ العارف محمد أبي الخير الميداني النقشبندي (1961م) اليد الطولى في دعم المجاهدين، وكان قد ترأَّسَ لجنةً لبحث قضية الجزائر والمذابح التي تقوم بها فرنسا في المغرب العربي.

ومنهم الشيخ صلاح الدين أبو الشامات الشاذلي، والمفكر والعارف بالله عبد القادر كيوان، والفقيه الصوفي الرفاعي طريقة محمد توفيق الدرة.

ومنهم الشيخ الجامع لعلوم الشريعة والحقيقة العارف بالله سيدي محمد سعيد البرهاني (1967م) شيخ الشاذلية في دمشق والشيخ محمد صالح الخطيب القادري. رحمهم الله جميعًا ورضي عنهم.

ولا يخفى على أحدٍ الأعمال البطولية التي قام بها الشيخ محمد الأشمر النقشبندي (1960م) الذي بدأ جهاده في معركة ميسلون ثم ترأس فرقة الميدان وقاد الثوار إلى معارك الغوطة، وشارك من قبل سنة 1936م في ثورة فلسطين الكبرى، وفي كل معاركه كان على تواصل مع الإمام بدر الدين الحسني.

وممن رافقه في هذه المعارك العلامة المرشد الشيخ حسن حبنكة الميداني الفقيه الواعظ الصوفي 1978م.

ويُذكر أيضًا العارف بالله الشيخ محمد علي الدقر التيجاني المتوفى سنة 1943م، وكان يحرض على الجهاد ويدرِّبُ مريديه ويعدهم لجهاد العدو.

ومما اشتهر عن الشيخ الدقر في خطبة الجمعة في مسجد السنانية في دمشق قوله: يا إخواننا، اللص دخل الدار وهو يطلب منكم ثلاثة أشياء: دينكم ومالكم وعرضكم.

وعندما سئل مَن هو هذا اللص؟ قال: إنه فرنسا. وبتأثير هبت دمشق وغوطتها.

وأيضًا الشيخ أمين سويد شيخ مشايخ الصوفية (1936م)، وتلميذه العلامة الفقيه العارف بالله تعالى الشيخ محمد صالح الفرفور (1973م) والشيخ محمد حجازي الكيلاني (1941م) الذي صارت زاويته مركزًا لتجمع المجاهدين خلال الثورة، والشيخ محمد هاشم الخطيب القادري (1958م) الذي صحب الشيخ بدر الدين الحسني في رحلاته، رحمهم الله جميعًا وجزاهم الله خيرًا.

كما أننا يجب أن نقفَ طويلًا عند حياة العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد النقشبندي (1969م) الذي جاهد جهادًا مريرًا، ولم يخَفْ في الله لومة لائم فنصح الأمراء والحكام والعصاة، وأخرج من الجهلاء الأميين علماء صلحاء، وكان ساهرًا مسافرًا حاملًا هم الدعوة في حماة خصوصًا، وتصدى لما كان يُكتب عن الإسلام في الصحف حينها، ونُشرتْ مقالاته في كتاب (ردود على أباطيل) في ثلاث

مجلدات وهو من أهم الكتب، وعُرفَ عنه أنه لم يحج إلا حجة الفريضة فلما سئل عن ذلك قال أنه مشغولٌ بالدعوة وهذا أهم[24].

ولا يفوتنا أن نذكر الطبيب مفتي سوريا الأسبق الشيخ أبا اليسر عابدين النقشبندي (1981م) الذي كان يسهر على إمداد الثوار بالسلاح والمال والدواء وهو في منصب الإفتاء.

والعارف بالله الشيخ أحمد الحارون الدمشقي الرفاعي (1962م) وقاتل بنفسه في كثير من المعارك وأصيب رضي الله عنه.

والشيخ المجاهد سعيد الأحمر (1981م) وهو من مشجعي مجالس الذكر ومجالس الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في دمشق[25].

ولو أردنا أن نذكر هؤلاء الأكابر الفخام لاحتجنا لكتابٍ مستقلٍ عن كل واحدٍ منهم رضي الله عنهم وجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

إضافة ألى أن هناك أسماء وأعلام من العلماء الربانيين في كل بلدٍ ضاق المقام لذكرهم، وإلا فالذي نشر الدين ودافع عنه وهم البلاد هم الصوفية. والدارس للتاريخ يعرف حقيقة هذا الكلام.

لا بد من التنبيه أننا في هذا الفصل أردنا الاستدلال لِما ندَّعيه أن التصوف ينطوي على جهاد النفس وتربيتها، وعلى جهاد العدو، وحماية الدين والتفاني في خدمته اتباعًا في ذلك لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فالتصوف لا يبعثُ الكسل والخمول والانحلال والانسلال من دائرة التأثير في الحياة الدنيا، ومَن فهم التصوف بغير حقيقته فليتعلم، وإلا فلا ينشِئْ ولا يتبنى تصوفًا جديدًا أنشأته نفسه الأمارة بالسوء.

وفي هذا الفصل رأينا كيف أن التصوف كان الدافع والسبب المحرك لعلمائنا وقوادنا في سبيل هذا الدين والتشرف بخدمته، وكلُّ تصوفٍ لا يؤدي إلى دعوةٍ ونصحٍ وجهادٍ في سبيل الله فهو تصوفٌ أقطع معلول، يجبُ إصلاحه، كما رأينا ونرى

---

24 فليسمع مشايخنا الذين تراهم مسافرين أو راجعين من عمرة وحج، وكأنهم انتهَوا من أعباء الدعوة، فهل هم يحبون النبي أكثر من الشيخ محمد الحامد؟؟!! فتراهم تعلقوا بزيارة النبي صلى الله عليه وسلم -وهو شيءٌ طيب- ولكن وظيفة الشيخ الأساسية هي الدعوة، فلا يترك الفرض الواجب عليه لأمرٍ هو سنة.والبطولة أن يزورك النبي صلى الله عليه وسلم لا أن تزورَه، فلو قمتم بالدعوة لرضيَ عنكم قطعًا، أما كثرة الزيارة فلا تقتضي أن يكون راضيًا عنك صلوات الله وسلامه عليه.

25 كنتُ كثيرًا ما أسمع بعلماء الشام من مشايخ منطقتنا وطلاب العلم الشرعي فيها ويقولون زرنا فلان تلميذ صالح الفرفور وفلان تلميذ الحارون و... و.... ولكن عندما قرأتُ عنهم سألتُ: هل يُكتسبُ الفخر والعلم والصلاح بمجرد الكلام عن العلماء والصالحين؟؟؟ هل نتغنى بأعمالهم ونحن بأمس الحاجة إلى جهادٍ وتضحيةٍ كما فعلوا؟؟؟ مع العلم أن أخبار هؤلاء العلماء حجة على كل شيخٍ لأنه رأى وسمع كيف عاشوا لله وماتوا لله تعالى، أما هو فعاش على ذكر أمجادهم مع الادعاء أنه شيخٌ وصالحٌ ومرشدٌ وغير ذلك مما زينه الشيطان ونفسه النفيسة عليه الأمارة بالسوء.ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، أسأل الله أن يوفقنا لخدمة دينه على وجه الإخلاص والصدق مع كمال الاتباع.

ممن يدعي التصوف، فتحدثه عن الدعوة فيقول لك: دع الخلق للخالق وتعلَّقْ أنت بالله تعالى، أو يقول لك أين الأدب؟ أين المسلمون؟ ويبدأ ببحرٍ من النقد يغرق هو فيه، وكأنه يريد صالحين ليدعوَهم أو مؤدَّبين ليرشدهم!!! ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى.

والتصوف قائم على الكتاب وعلى الاتباع لسيد الخلق والسلف الصالح، فمَن حاد عن هذا فليس صوفيًا.

فلو أن أهل التصوف الآن تحققوا بما كان عليه شيوخهم من الصحابة ومَن بعدهم، لحكموا وسادوا البلاد ولكن الهمم ضعفَت والقلوب جبنَت، فحقيقة الزهد غائبة عن كثير ممن يدعي التصوف.

ومَن بقي قلبه متعلِّقًا بالدنيا أو يتمنى تحصيلها ويسعى لذلك أو يخاف الفقر وفوات الدنيا عنه فلن يضحي بحياته في سبيل دينه، ولن يُتعب نفسه بالدعوة في عصر تيارات الفساد.

فلا بد من العودة لأهل القرون الأولى وساداتنا العلماء، لنتعلم من سيَرهم وحياتهم كيف نعيش الإسلام بشموليته ومنه التصوف، وكيف يكون حاضرًا في جزئيات حياتنا وليس فقط في الزاوية أو مع إخوان الطريقة.

نشأة الطرق الصوفية

المرحلة الاولى: الرُّبُط والخوانق:

من المعلوم أن السلف الصالح كانوا أهل تربية وجهاد، وهم سادات التصوف وإن لم يظهر هذا اللفظ في أوائلهم.

فكان الإمام الحسن البصري غازيًا في سبيل الله تعالى كما ذكر الذهبي وابن حجر عنه، أنه لازم الجهاد والعلم والعمل وكان أحد الشجعان الموصوفين في الحرب.

وهو أي الحسن البصري يُعدُّ شيخ الصوفية الأول، وصاحب مدرسة خاصة في الكلام على تهذيب النفس وتربيتها.

وقد تخرَّجَ على يديه الكثير من الأئمة مثل: فرقد السبخي، ومحمد بن واسع، ومالك بن دينار، وحبيب العجمي، ثم جاء إبراهيم بن أدهم، وأبو إسحاق الفزاري، وعبد الواحد بن زيد (177هـ) (وهو أول من أظهر اسم الصوفية تصريحًا، لذلك عدَّه السراج الطوسي أنه من أوائل مَن نطق باسم الصوفية ووصفَهم، وقال عنه الذهبي أنه شيخ الصوفية وواعظهم)، وعلي بن بكار، ومعروف الكرخي، والفُضَيل بن عياض، وشقيق البلخي، ومحمد أبو العباس السماك، ثم حاتم الأصم، وأبو يزيد البسطامي، وأبو حمزة الصوفي، والسري السقطي، وسهل بن عبد الله التستري، وسيد الطائفة أبو القاسم الجنيد الذي أظهر علوم الصوفية متكلمًا به على الناس، وهو أشهر من أن يعرَّف ولا خلاف على إمامته وفضله.

كان هؤلاء جميعًا علماء فضلاء، وغزاة ومجاهدون في سبيل الله تعالى، وحمَوا عقائدنا بالعلم والتعليم والإرشاد والحرب، لذلك صاروا يهاجرون للإقامة على الثغور –الحدود- يحمون بلاد الإسلام من أعدائهم حتى لُقِّبَ الصوفية بـ(فتيان الثغور) أي في مفهومنا حَرَسُ الحدود.

ومن ثم استنَّ الصوفية سنةً حسنة هي (المرابَطة)، فكانوا يذهبون إلى هذه الربط لمجاهدة العدو اقتداءً بالصحابة في ذلك، فقد رابط أبو هريرة رضي الله عنه في منطقة البداوي مثلًا، وغيره من الصحابة رضي الله عنهم سافروا إلى البلاد من أجل الرباط في سبيل الله تعالى.

ولأن إقامتهم على هذه الثغور كانت تطول في بعض الأوقات، عملوا متكاتفين على بناء بيوتات صغيرة، تشبه مخافر الحدود اليوم، وكانت هذه نواة الربط التي انتشرتْ بكثرة فيما بعد، وأصبحت أماكن لتجمُّع المجاهدين أينما وجدتْ، بعدما توافد غزاة المسلمين إليها من أنحاء الدولة الإسلامية.

ذكر المقريزي: الربط جمع رباط: وهو دار يسكنها أهل طريق الله، وهو بيت الصوفية ومنزلهم، والمرابطة: ملازمة ثغر العدو، وقيل: لكل ثغرٍ يدفعُ أهلُه عمن وراءهم رباطٌ.

فالمجاهد المرابط يدفع عمن وراءَه، والمقيمُ في الرباط على طاعة الله ممن لا يستطيع حمل السلاح يدفع الله بدعائه وعبادته البلاء عن البلاد.

وكان من الطبيعي أن تنتشر الرباطات بكثرة على طول حدود الدولة الإسلامية، وعلى حافة قواعد الحرب الأمامية للحراسة، ولصدِّ الغارات المتكررة حتى شبهها بعضُ الغربيين بالأديرة المحصنة ونحن نشبهها بالحصون المشرفة.

وذكر المؤرخون: أنه في أواخر القرن الرابع الهجري كان في بلاد ما وراء النهر زيادة على عشرة آلاف رباط، وكثير منها إذا نزل نازلٌ فيها أقيم علف دابته، وطعامه هو لأن تلك البلاد دار حرب.

بينما كان في بخارى وسمرقند ألف رباط.

وهذا العدد في ثغرين من ثغور الحرب، فما بالك في كل الدولة الإسلامية.

وكدليل آخر على كثرة الربط الصوفية وانتشارها الواسع يقول ابن حوقل: أنه لا يوجد مدينة عظيمة من حد سجستان وكرمان وفارس(إيران) وخوزستان، والري (شمال إيران) وأصبهان وجميع الجبال وطبرستان والجزيرة وأذربيجان والعراق والحجاز واليمن والشام ومصر والمغرب إلا وبها ولأهلها دار ورباط.

ويقول المقريزي: أنه كان على امتداد ساحل الشام رباطات للنَيل من الأعداء إذا قدموا من البحر، فأهل دمشق يرابطون في بيروت، وأهل حمص في طرابلس وأهل القدس في يافا.

فثبَّتوا المنارات وكلَّفوا حرسًا تراقب قدوم العدو، فإذا كان الوقت ليلًا أوقدوا منارة ذلك الرباط، وإن كان نهارًا دخَّنوا أي أشعلوا نارًا تُخرجُ دخانًا.

وقد ثُبِّتَتِ المنارات متسلسلة فلا يكون ساعة إلا وقد حصل النفير بين الناس استعدادًا لمنازلة العدو.

ومن الأمثلة على هذه الربط الساحلية بُرجٌ عمَّره الشيخ العارف بالله تعالى أبو العباس الرملي المقدسي، وكان كثير المرابطة فيه ويقع هذا البرج على جانب البحر بثغر يافا.

ورباط أبي الفتح الواسطي في ثغر الإسكندرية، وهو من تلامذة سيدي الشيخ أحمد الرفاعي رضي الله عنهم.

وفي الشام اشتهر رباط العالم الصوفي الشهير الشيخ أرسلان الدمشقي (541هـ) صاحب الرسالة المعروفة في التوحيد والتصوف، الذي لم يكن رباطه يقع داخل

سور مدينة دمشق بل خارجها، كأنه مخفر يأوي إليه حرس الحدود والذين يطوفون حول المدينة بعد إغلاقها ليلًا (أهل الدوريات الراجلة الليلية) كي لا يفاجئهم عدو.

وكان المريدون والجنود منهم يترددون إلى رباطه ليتعلَّموا فيه جميع أنواع الدراسة من التوحيد والفقه والتصوف ويقيموا مجالس الذكر، ويتدربوا على الفنون الحربية، حتى لُقِّبَ الشيخ أرسلان بـ(إمام السالكين وشيخ المجاهدين)، وحتى الآن لا يزال أهل دمشق يذكرونه ويرددون الأنشودة المعروفة: (شيخ رسلان يا شيخ رسلان يا حامي البر والشام) وقبره معروفٌ يزار.

وقد كان الملك العادل المجاهد نور الدين زنكي الشهيد يراسله ويعتقد فيه كثيرًا.

ونخلُصُ أن أهل الربط هم المريدون الذين كانوا جنودًا ومتعلمين، وكانوا يقيمون مجالس الذكر والإنشاد في الرباط.

ونجد كثيرًا من العلماء والمحدثين والفقهاء من السلف ومَن بعدهم رابط في أحد الرباطات ودرَّسَ وذكر وشاهد هذا العمل الجليل الذي يُحفظ لأهل الحق رحمهم الله.

المرحلة الثانية:

هذه المرحلة شهدت تطورًا بالغ الأهمية في تاريخ التصوف، ففيها ظهرت الأفكار التربوية الروحية، وتبينت معالم الطريق الصوفي من مقامات ومنازل السلوك وما يرتبط فيها من أحوال.

وفي هذه المرحلة أيضًا بدأ ظهور المؤلفات التي تدون تاريخ التصوف ورجاله ونظرياته، وظهرت نواة الطرق الصوفية التي سنتكلم عنها فيما بعد.

وبرز نجمان، وأشرق قمران، وعلَمان بارزان في حياة التصوف، وهما: أبو القاسم الجنيد سيدُ الصوفية، والإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي رضي الله عنهما.

وكلاهما كان شافعيَّ المذهب، صوفيَّ المشرب، سُنيًا متمسِّكًا بأحكام الشرع وآدابه.

وسنوضح بما تيسَّر مساهمة هذين الإمامين في تقعيد أسسِ علم التصوف.

الإمام الجنيد:

فقد رُوي عنه أنه قال: ما أخذنا التصوف من القيل والقال، ولكن عن الجوع وترك الدنيا، وقطع المألوفات والمستحسَنات[26].

وذكر رجلٌ عند الجنيد أهلَ المعرفة، فقال: أهل المعرفة بالله تعالى يصلون إلى ترك الحركات من باب البر أي يقصد أنهم يتركون الأعمال وتسقط عنهم الواجبات، فقال الجنيد: إن هذا قولُ قومٍ تكلموا بإسقاط الأعمال وهو عندي عظيمة[27]، والذي يسرق ويزني أفضل عندي من الذي يقول هذا، فإن العارفين بالله تعالى أخذوا الأعمال عن الله تعالى أي عن طريق شرعه، وإليه رجعوا فيها أي بها وصلوا إلى رضاه وحبه.

وقال أيضًا: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقال أيضًا: من لم يحفظ القرآن ولم يكتبِ الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا هذا مقيَّدٌ بالكتاب والسنة.

وقال أبو بكر العطوي: كنتُ عند الجنيد حين مات، فرأيته ختم القرآن ثم ابتدأ من أوله وقرأ سبعين آية من سورة البقرة، ثم مات رحمه الله تعالى.

بهذا المنهج الواضح المستنير بنور الكتاب والسنة، وبتلك الشخصية القوية القويمة، والمتانة العلمية الرصينة، اكتسب الجنيد ثقة العلماء بالتصوف وأحب العوام طريقة تربيته واطمأنوا لها لصفاء مشربها.

وأظهر التصوف على أنه روح هذا الدين وهذا هو الحق.

وقد تتلمذ الإمامُ الجنيد على اثنين من أكبر شيوخ المرحلة السابقة وهما الإمام الحارث المحاسبي، وعلى خاله السري السقطي الذي شهد لتلميذه الجنيد أنه أعلى منه مرتبة في الميدان الروحي.

لقد ورث الجنيد عن خاله السري روح المحبة، فمزج بين الحب الخالص وبين السلوك المتوازن المنضبط، الذي أخذه عن الحارث المحاسبي، فتهيَّأت له الفرصة ليُكسبَ التصوف الوطن، وليجعله علم إصلاح الحال، وذلك بجهوده في بيان حقيقة التصوف ونفي الغلو عنه وإزالة التعارض الموهوم بينه وبين الشريعة، وعمل على إظهار عقيدة التصوف كالشهد الخالص من الكتاب والسنة.

---

26 أما الجوع يكون لكسر شهوة النفس وشَرَهِها بشكلٍ لا يؤدي إلى إضعاف الجسد أو إلى الكسل عن العبادة.وترك الدنيا يُقصد به الزهد، وترك كل ما يلهي عن الله تعالى ولو كان لا يملكه، فالزهد ليس عدم وجود شيء في اليد، ولكن عدم وُجدان ذلك في القلب وعدم الالتفات إليه بمعنى عدم تعلق القلب بذلك، وقطع المألوفات والمستحسنات أي ترك ما تشتهيه النفس من المباحات إما عقوبة لها على معصية أو تنشيطًا لها على طاعة، وحتى لا تعتاد النفس على الحصول على ما تريد كالطفل لا يُعطى كل ما يريد حتى لا ينشأ على الشره والطمع، وعلى عدم الصبر على فقد ما يريد بل يجب التعود على المكاره في كل شيء.

27 قوله (عظيمة) يقصد كفر لأنه قال بعد ذلك أن السرقة والزنا أهون منه، مما يعني أنه أخطر من الكبائر وليس هذا إلا الكفر، مع العلم أنه يقال للكفر ذنبٌ عظيم أو أعظم المعاصي ويراد به الكفر.

وبهذا استطاع الجنيد أن ينقل التصوف إلى مرحلة النضج والتربية، والقيادة للساحة الإسلامية.

حجة الإسلام الإمام الغزالي (505 هـ):

أشهر من أن يُعرَّف، ولكن نقول أن الغزالي قد تيسرت له شخصية علمية موفقة وقوة فكرية متينة، بحيث صار أستاذ العقيدة وسائر العلوم في جامعة المستنصرية في بغداد، كما كان فقيهًا أصوليًا من أرفع طراز حتى لُقِّبَ بـ(الشافعي الصغير).

فلما ضم إلى ذلك العلم المشربَ الروحي اكتملتْ شخصية التي كان ينتظرها العالَم الإسلامي، فصار صاحب اللقب المشهور (حجة الإسلام) ويُعدُّ مجدد القرن الخامس الهجري، وشهد له القوم بالصديقية العظمى.

لقد كان العالم الإسلامي في القرن الخامس الهجري في حاجة ملحة إلى شخصية قوية جديدة ترد إليه نبض الإيمان الخافت، نتيجة اختلاف المذاهب الإسلامية فيما بينها، وتحتاج لعالِمٍ يعتمد على مصادر الدين الأصلية (الكتاب والسنة) والاستقامة في الأخلاق، ويعرضُ العقيدة عرضًا عقليًا جميلًا يحرك العواطف، مع الوقوف في وجه الفلاسفة والفرق الضالة كالباطنية والمشبهة والمجسمة وغيرهم.

لذا لا بد لهذه الشخصية أن تجمع بين العلوم العقلية والنقلية، مع الذوق الرفيع والإشراق الروحي، ففي هذه الشدة الحرجة رُزق العالَم الإسلامي بالإمام الغزالي. يقول الشيخ أبو الحسن الندوي: لقد رُزق العالم الإسلامي وهو في أشد وأدق ساعة هذه الشخصية الفذة وهي شخصية الغزالي.

فحقق الغزالي ذاته بوصفه علامةَ زمانه وصوفيَّ أوانه، وتصوفه كان علمًا وعملًا وحالًا، وعمل أيضًا على توحيد العالم الإسلامي وكل العالم يشهد بذلك.

وترك كتُبًا مراجع في كثيرٍ من العلوم، ويكفيه شرفًا كتاب إحياء علوم الدين الذي عمل فيه على بناء الشخصية الكاملة التي يرضاها الله ورسوله مع سلامة اعتقاد واستقامة أخلاق.

وكان آخر رجلٍ في هذه المرحلة.

وكان قد سبقه بقليل وعمل جُهدًا كبيرًا لا يُنكر في إنهاض العلماء على الوحدة، وعمل على إخراج صوفية زمانه من الهامش إلى صلب الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها، مع عرضٍ لعقائد الصوفية بأجمل عبارة، الإمامُ الأستاذُ أبو القاسم عبد الكريم القشيري ٍصاحب كتاب الرسالة في علم التصوف.

وكان بين الجنيد والغزالي رضي الله عنهما مجموعة من العلماء لا يُنبغي أن تُغفل أو تُنسى: كسهل بن عبد الله التستري (283هـ)، والحكيم الترمذي (320هـ)، وأبي عبد الله بن خفيف الشيرازي، وأبي بكر الشبلي (334هـ)، وأحمد الغزالي شقيق

حجة الإسلام، و رُوَيم بن محمد (303هـ) صاحب سر الجنيد، وعمرو بن عثمان المكي وغيرهم رضي الله عليهم.

في هذه الفترة نضجتْ حركة التأليف في علم التصوف، فبعد أن كتب الفقهاء في الفقه وأصوله وعلم الكلام والتفسير وغيرها من العلوم، قام العلماء بكتابة الكتب في طريقهم، فمنهم مَن كتب في الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الأخذ والترك مع بيان مصطلحاتهم كما فعل الإمام القشيري في الرسالة، والسهروردي في (عوارف المعارف)، ومنهم من كتب في الزهد، ومنهم من كتب في ذلك كله جامعًا كلَّ الأبواب والمواضيع في كتابٍ واحد كما فعل ذلك الإمام الغزالي في (إحياء علوم الدين).

فصار علم التصوف في الأمة مدوَّنًا، وبقيتْ أحكام الطريقة علمًا وعملًا تؤخَذُ من صدور العلماء والتزام صحبتهم.

واستمرت حركة التأليف حتى جُمعتْ كثيرٌ من كلمات وأحوال المشايخ وطرق تربيتهم، مما يفيد في رسم المناهج المختلفة لكلِّ شيخٍ في أسلوب تربية تلاميذه.

وبعد هذه الفترة بقليل بدأت تظهر بوادر الطرق الصوفية، وكانت تتمثل في اجتماع المريدين حول شيخٍ مشهورٍ لتتربى على يديه، دون التزامٍ بعهدٍ أو ارتباطٍ تنظيميٍّ، ولكن كان الربط يقتصر على سندٍ متصل وسلسلةٍ تربط المريد بالشيخ وشيخ شيخه وهكذا إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

وتطورتْ هذه الاجتماعات بقيادة شيخٍ مرشد وكثرتْ حتى أننا نعلم أن الإمام الغزالي عاد إلى طوس ليُنشئَ (خانقاه) أو ما يُسمى (رباط) مأخوذ من المرابطة في سبيل الله تعالى على ثغور الدولة الإسلامية (نقطة حراسة الحدود) أو ما نسميه في عصرنا بـ(الزاوية) ليُعلم التلاميذ (المريدين) ويربيهم على محاسن الأخلاق.

وبهذا يكون التصوف كعلمٍ أصيل من العلوم الإسلامية بدأ يأخذ شكلًا تنظيميًا، فالزاوية من ناحية كانت مؤسسة تضمن للحركة الصوفية الاستقرارَ والاستقلالية والاستمرارية، ومن ناحية أخرى صارتْ محل أنظار الطلاب والعلماء فانتشر صيتها.

فالطريقة[28] كانت تعني المنهج العلمي الذي يوجه التلميذ (المريد- السالك) في مجالات العقل والشعور والعمل، بحيث ينتهي بعد الصعود في المقامات مرورًا بالأحوال ليصل إلى رضا ربه تعالى.

---

28 الطريقة في اللغة هي الأسلوب أو المسلك الذي يوصل إلى المقصود بسهولة ويسر، وهي عند الشيخ محمد الكسنـزان: المنهج أو الأسلوب الذي يستنبطه شيخ الطريقة من الكتاب والسنة المطهرة لتطبيق الشريعة الإسلامية تطبيقًا كاملًا بظاهرها وجوهرها.ويقول الجرجاني في تعريفاته: الطريق عند اصطلاح أهل الحقيقة عبارة عن مراسم الله تعالى وأحكامه التكليفية المشروعة التي لا رخصة فيها، فإن تتبُّع الرخص سببٌ لتنفيس الطبيعة المقتضية للوقفة والفترة في الطريق.
ويقول في لطائف اللغات: الطريقة في اصطلاح الصوفية عبارة عن السيرة النبوية الخاصة بالسالكين إلى الله وبالله وفي الله من قطع المنازل والترقي في المقامات. أخذتُ التعريف الأخير من شرح المنقذ من الضلال للشيخ المعتصم بالله البغدادي حفظه الله تعالى ووفقه.

ويمكن القول أن الشيخ اجتهد فاستنبط من القرآن والسنة علاجاتٍ وأدوية لأمراض النفوس، ورأى أن الطريق يبدأ بالتوبة ثم الافتقار مثلًا، وجعل للترقي مراحل حددها بناءً على اجتهاده، فصارت التربية عنده متكاملة، وبهذا سميتِ الطريقة باسمه.

وآخر يرى أن الطريق يبدأ بالحب والمعرفة بعد التوبة، ثم يشترط أمورًا لتحقيق ذلك كالخلوة أو الرابطة أو غيره مما له دليل من الكتاب والسنة.

فمن اختلاف الاجتهادات والتفنن والأساليب في تربية المريدين، نشأت وتفرعت طرق التربية إلى طرق صوفية تسمى حسب أسماء أهلها.

قال تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهديَّنّهم سُبُلَنا) جمعَ السبُل والسبيل هي الطريق، وهو يدل على كثرة السبل إلى الله تعالى، وأن الله هو الذي يهدي إلى تلك السبل بحسب الجهاد والاجتهاد.

المرحلة الثالثة: مرحلة الازدهار:

بعد المرحلة الثانية ازدهر التصوف في مجالَيه الفكري والعملي، وانتشر حتى غلب على الساحة الإسلامية، ويرجع ذلك إلى أن حقيقة التصوف المتعلق بالتربية هو روح الدين الإسلامي، أصبحت ظاهرة كعلمٍ متأصل خالص من كل ما يشوِّشُه.

بدأتْ هذه المرحلة بظهور شخصية فذة فريدة في نوعها، وهي شخصية الإمام البحر، والسيد النوراني سيدنا الشيخ عبد القادر الجيلاني العلَم الأشهر والقطب الأفخم.

به ظهرتْ أول طريقة صوفية منظمة تنظيمًا كاملًا واستمرت إلى يومنا هذا.

وأخذت الطريقة طابعًا علميًا عمليًا، وبُعدًا اجتماعيًا واقتصاديًا وسياسيًا، حتى صارت الزاوية مهوى أنظار كل الناس على اختلاف مستوياتهم.

ففيها كان العلم والعمل والتخطيط لخدمة الدين، وفيها الارتباط الروحي بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكانت الزاوية مركز إعداد الشخصية الإسلامية الكاملة دينًا ودنيا، فيُعلَّم التلميذ أحكام دينه بَدءًا بالعقيدة والفقه والقرآن، ويُربى بطرقٍ خاصةٍ تناسب حاله ومرضه، تمامًا كالمريض مع الطبيب الذي يعطي دواءً مختلفًا لكل مريض بحسب حالته ووضعه وقدرة تحمله وسنه، وكذلك في تربية النفوس والقلوب.

ثم تُبنى له شخصية اجتماعية، قائمة بالأساس على العفاف والزهد، وكمال التضحية، وخدمة الناس، والرحمة الشاملة لهم.

ثم اتخذت الزاوية مركزًا خدماتيًا، يأوي إليه الفقراء والمساكين والمحتاجين ويأوي المريدون لأنها المستشفى لكل مرضٍ.

كما أن القيادة السياسية والعسكرية في الحروب خرجت من الزوايا، التي عادةً ما كانت تلاصق أو تقرب من المسجد للحفاظ على التعلق بالمسجد وأداء العبادات فيه.

فعندما تقول طريقة يخطر في بالك كل هذه النشاطات، فالتلميذ يَصلُح حالُه ظاهرًا وباطنًا إذا التزم بكل تعليمات شيخه الذي يشرف على إدارة شؤون الزاوية.

ولذلك ترى الطريقة الصوفية حينها مهتمة بإعلاء دين الله تعالى في الأرض عبر جذب القلوب إلى التوبة، وتحبيب الله إلى العباد، وعبر نشر الإسلام بأجمل الأساليب وهذا لا يتقنه إلا الصوفية وأمثالهم.

ونحن نرى هذه الطرق الصوفية في مراكزها (الزوايا) كالطريقة القادرية والرفاعية على الخصوص كيف خرجت أجيالًا من أفضل الرجال الذين بهم تم فتح بيت المقدس، حيث كانوا كبارَ قادةِ جيشِ صلاحِ الدين الأيوبي رضي الله عنهم جميعًا.

وقد ذكر ابن جُبير عن هذه المؤسسات (الزوايا) أنه ما شاهد فيها دقةَ التنظيم وحسنَ السياسة والتربية، ومدح أهلها وترتيباتهم، كما في رحلته.

وبعدما انتشرت الطرق الصوفية، فإذا اجتمع التلاميذ حول شيخٍ يتبع أسلوبًا جديدًا وطريقة متميزة في التربية الروحية، فيتطور الأمر إلى أن تصبح طريقة جديدة تتخذ اسم الشيخ اسمًا عَلَمًا لها، أو يكون الشيخ قد أحيا طريقةً كانت قد تراجعت ونُسيت ويضيف إليها شيئًا فيقال مثلًا (الطريقة الشاذلية القاووقجية نسبة إلى المحدث الكبير أبي المحاسن القاووقجي الطرابلسي).

وأخذت الطرق أشكالها المختلفة اليوم ولكنها تراجعت عن دورها الريادي في قيادة الأمة –وهذا ليس مبالغةً- وتارةً كانت الطرق تنقذ المسلمين من الجوع وغيره، ومن أراد معرفة ذلك فليراجع كتب التاريخ، وأحيانًا كان في برنامج المريد أن يتعلم حرفة في الزاوية أو خارجها بإشراف الشيخ أو نائبه.

وفي عصرنا الحديث، تجد هذه الأعمال عند بعض الشيوخ في أفريقيا والمغرب، فأحد شيوخ الطريق قام هو ومريدوه بزرع مساحاتٍ كبيرة من الصحراء واستصلحوها للزراعة، فكانت مصدر أقواتهم وتجارتهم، حيث كان شيخ الطريق مهندسًا زراعيًّا قبل أن يصير شيخًا للطريقة.

ومن أراد الاستزادة فليبحث عن ذلك وغيره الكثير في تاريخ الطرق الصوفية المعاصر والحاضر.

وكان الشيخ الإمام عبد الوهاب الشعراني يقول: يعجبني الصوفي سُبَّحتُه مِنشاره، إشارة منه إلى أن الصوفي عاملٌ مفيد في بيئته ولا يقبل الصدقة والاعتماد على

المساعدات، عملًا بقول سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم: المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير.

ولو أردنا الاستفاضة بهذه الفترة لاحتاجت إلى كتابٍ مستقل أو أكثر ولكن اكتفينا بهذه التلميحات.

والحمد لله رب العالمين.

الخلاصة:

الطريقة هي الأسلوب والمنهج الذي يتبعه الشيخ المربي ليربي مريديه (ويتبع أذكارًا مختلفةً عن أذكار الطرق الأخرى مما يفيضُ الله على قلبه، بشرط عدم ترك الأوراد النبوية).

وتتفق الطرق كلها بالأذكار المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم، واشترطوا البدء بها قبل ورد الطريقة لأنها هي الأصل، ومَن ترك أذكار النبي صلى الله عليه وسلم وعمل بأذكار الشيخ والطريقة، فقد ابتدع وترك البحر ولحق السواقي.

وتشمل الطريقة التنظيماتِ والقوانين المتبعة داخل المقر العام (الزاوية) لكل طريقة، وأُشبهُها بالجمعيات الإسلامية من حيث دورُها الاجتماعي والديني والتربوي، ولكن الطريقة التي مقرها في الزاوية تكون أنشط وأقوى فعالية من الجمعية الإسلامية في عصرنا، مع التنبيه إلى عدم وجود الحسد والتنافر والتدابر والغيبة بين أصحاب الطرق الصوفية، لا على صعيد المشايخ ولا على صعيد المريدين، على عكس ما نراه اليوم من بعض المنتسبين إلى الصوفية.

تذييل:

أما إذا أردنا البحث عن اسم الطريقة ودلالة هذا اللفظ في القرآن الكريم، فسنجد ما يوضحه ويبيِّن المقصد منه في عدة آيات كريمة، فلنتأملْ معًا:

حين نقرأ الآياتِ الكريمةَ مثلَ قوله تعالى (وألَّوِ استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقًا)، نجدْ أن الحق تعالى يتحدث عن أمرٍ معيَّن اسمُه (الطريقة) ينبغي علينا أن نستقيم عليه، ولكنه سبحانه وتعالى لم يوضحْ بالضبط ما هو المقصود من لفظ الطريقة، أي لم يحددْ ملامحَ هذا اللفظ القرآنيِّ بشكلٍ مباشر.

وكذلك الحال في لفظِ (الصلاة)، فحين أمر بها تعالى لم يحددْ عدد رَكعاتها وباقي تفاصيلها، وهنا يرجع المسلمين إلى حضرة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ليبيِّنَ لهم تفاصيل الأمر الإلهي، أو يلجأون إلى فهم القرآن بالقرآن، وقد اشتهر بين العلماء عبارة أنَّ القرآنَ الكريمَ يفسر بعضُه بعضًا.

كيف ذلك...؟

مثلًا حين نقرأ قولَه تعالى (صراط الذين أنعمتَ عليهم) ونريدُ أن نعرف مَن هؤلاء الذين أنعم الله تعالى عليهم، نجد آية كريمة أخرى تقول:(فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقًا).

فهذه الآية الكريمة تذكر أن الذين أنعم الله تعالى عليهم هم الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وهي تفسر الآيةَ الأولى، بمعنى أن الله تعالى يأمرنا في الآية الأولى أن نطلبَ صراطَ المذكورين في الآية الثانية، وكأنه يأمرنا أن نطلب صراط الأنبياء والصديقين.... الخ.

فهذا معنى تفسير القرآن بالقرآن.

وفي آية الطريقة، لمَّا رأينا أن كلمة الطريقة لم تتضحْ معالمُها في القرآن الكريم، وقد جاءت مرتبطة بمفهوم (الاستقامة) علمْنا أن تفسير الاستقامة يفسر لنا بعضَ ما هو مراد لله بلفظ الطريقة في القرآن الكريم.

فالاستقامة في اللغة هي الاعتدال، يقال: استقام الإنسان، أي اعتدل في سلوكه وكانت أخلاقه فاضلة.

والاستقامة بالمعنى الشرعي هي تحقيق الموازنة بين الإيمان والعمل، فعن سفيان بن عبد الله الثَّقَفيِّ قال: قلتُ يا رسولَ الله، قل لي في الإسلام قولًا لا أسألُ عنه أحدًا غيرك بعدَك، قال (قلْ آمنتُ بالله ثم استقمْ). فهذا الحديث - كما يقول علماء الحديث - من جوامع الكلم، إذ جمع فيه النبي صلى الله عليه وسلم الإسلام كلَّه بكلمتين:

(قلْ آمَنْتُ بالله) = العقيدة.

(ثم اسْتقمْ) = العمل.

(قلْ آمَنْتُ بالله) = الفكر.

(ثم اسْتقمْ) = في السلوك.

فالإسلام اعتقادٌ وعمل، منطلقٌ نظري وتطبيقٌ عملي، فهمٌ وسلوك. وهو من معاني قوله تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) سورة الأحقاف:12.

ولكن هل الإيمان قول؟

جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: من قال لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة.

قيل: يا رسول الله وما حقها؟

قال: أن تحجزَه عن محارم الله.

فإذا قلتَ: لا إله إلا الله مخلصًا، وإخلاصُها هو أن تحجُزَك عن محارم الله، أي أن تأتمر بالمعروف وتنتهي عن المنكر، فقد آمنتَ واستقمتَ.

إن كلَّ ما في الإسلام من سعادة وطمأنينة وتوازن لا تقطفها إلا بهاتين الكلمتين (قل آمنتُ بالله ثم استقم).

الاستقامة إذًا هي تطبيق أركان الدين الإسلامي تطبيقًا كاملًا، فالاستقامة أن تقوم على الأمر والنهي، ولا تروغ عنه روغان الثعلب كما قال سيدنا عمر، وعلى العكس من ذلك تمامًا فالاستقامة هي الخط المستقيم كما رسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين "خطَّ خطًّا، وخطَّ عن جنبَي ذلك الخط خطوطًا، فكان ذلك الخط شرعُه ومنهاجُه الذي بعث به.

وقيل له: قل لأمتك تسلك عليه ولا تعدل عنه، وكانت تلك الخطوط شرائع الأنبياء التي تقدمتْه والنواميس الحكيمة الموضوعة، ثم وضع يده على الخط، وتلا: وأن هذا صراطي مستقيمًا، فأضافه إليه ولم يقل صراط الله ... هذا معنى الاستقامة المتعلقة بالنجاة [29]".

يلاحظ من هذا النص كيف أن الاستقامة هي السير على الصراط المحمدي للوصول إلى النجاة بالنفس في الآخرة، وهذا الصراط أمرنا الله تعالى أن نسأله إياه في كل صلاة نؤديها وذلك بتلاوتنا (اهدنا الصراط المستقيم) من فاتحة الكتاب.

فما هو الصراط؟

روى عن الضحاك عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: قال جبريل لمحمد صلى الله عليه وسلم:

قل يا محمد: اهدنا الصراط المستقيم، أي أَلْهِمْنا الطريق الهادي. فهو الطريق الهادي إلى دين الله، كما رواه ابن عباس رضي الله عنهما، وبه قال مجاهد.

إن الترابطَ والتلازمَ بين الصراط وهو الطريق وبين الاستقامة، يفسر لنا قوله تعالى (وألَّو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقًا) أي لو ساروا على الطريقة المستقيمة التي خطها رسول الله لنفسه وأمته، لَوَصلُوا إلى مراتبِ القربِ التي توصل لها تلك الطريق.

---

29 - الفتوحات المكية الشيخ الأكبر الإمام ابن عربي رضي الله عنه.

التصوف اليوم:

أولًا لا بد من تقسيم الناس في موقفهم من التصوف، فإنهم ينقسمون إلى فئتين: فئة تعارض التصوف وأخرى تؤيِّده.

1- الفئة المعارضة للتصوف:

وهي تنقسم إلى قسمين:

أ- القسم الأول: درسَ التصوف وقرأ تاريخه، ولكنه أخطأ في دراسته من حيث طريقة تعرُّفه إلى التصوف، كأن قرأ كتب أعداء التصوف[30] أو قرأ كتبًا لا تعكس التصوف الصحيح، أو قرأ كتابًا واحدًا أو اثنين فوجد بعض المآخذ، فحكم على التصوف كله بالسوء دون الرجوع إلى المراجع المعتبرة والعلماء المتخصصين في هذا العلم الشريف[31]، فهذا الأسلوب المتَّبَع في دراسة التصوف خطأ، ومن الطبيعي أن يُنتج أحكامًا خاطئة، كأن يقول أن التصوف لا أصل له أو لا حاجة له ولا فضل له، فيبدأ حربه بناءً على جهلٍ أو فهمٍ معكوس وهذا أصعب.

ب- القسم الثاني: ينقد التصوف وهو جاهلٌ لا يعرف عنه شيئًا، بل لا يعرف تعريفه ولا أركانه وأصوله، وأخذ يبدِّعُ ويشرِّك، بل بعضهم أخرج التصوف من الإسلام ناسيًا أو متناسيًا أن جمهور علمائنا كانوا ينتمون إلى طريقة أو مدرسة صوفية، والذي دفعه لهذه الأحكام والحرب حقدٌ دفينٌ، يغذيه جهلٌ عميقٌ، متأصِّلٌ في النفس ويزينه عصبية عمياء لأشخاصٍ، ناتجةٌ عن هوًى وحب أعمى لما يعتقده ويؤمن به من أفكار.

وهذا حال أغلب الفئة التي تدعي الانتساب إلى السلف زورًا، وتزعم أنها تحمل راية الكتاب والسنة.

2- الفئة المؤيدة للتصوف:

وهي أيضًا تنقسم إلى قسمين:

أ- القسم الأول: يؤيد التصوف على عمًى ودون تمييز ولا يرى الأخطاء والبدع التي انتشرتْ بين الصوفية، وصار يدافع عن كل شيءٍ ظنًا منه أنه من أصول التصوف ومبادئه.
وذلك لأنه نشأ وهو لا يعرف من التصوف إلا أشكالا وطقوسًا ظاهرة، ولا يعرف هدف مدرسة التصوف ومنهجها في التربية.

---

30 كالذي كتبه عبد الرحمن عبد الخالق، أو غيره ممن جعلوا التصوف عدوَّهم الأول كما صرَّحوا بذلك.

31 كالرسالة القشيرية للإمام القشيري، والتعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي، وعوارف المعارف للسهروردي، والإحياء للإمام الغزالي وغيرها من الكتابات المعاصرة عن هذا العلم الشريف.

وهذا نابعٌ عن جهلٍ بالتصوف وقلة وعي منهم، وهذا حال بعض مَن تصدروا في مناطقنا لفتح الزوايا وإعطاء الأوراد، ومنهم كما نعلم كذابون ودجالون بل لا يحسنون الوضوء ولا الصلاة، ويخدعون الناس ببعض المنامات المخترعة وبعض الألاعيب لإيهامهم أنهم أهل كشف وكرامات. ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى.

فإذا نصحتَه أخذتْه العزة، فكيف تعظه وهو شيخ الطريقة؟؟!! وهو المكرَّم المعظم بين قومه؟؟ وأبوه كان صالحًا وشيخًا للطريقة قبله؟؟!!! فإنه من بيت صلاحٍ وأنتَ لقيط جاهلٌ، ولا تفهم ما يحدث فإنك صغيرٌ جاهل، فعليك بتقبيل الأيدي والأرجل وتقديم الهدايا كي تحصل على السر ويرضى الله عنك – هكذا يزعمون ويريدون- وهذه قواعد التصوف عندهم.

ومن هنا شنَّ بعضُ الناسِ الحرب على التصوف دون تمييز بين التصوف الصحيح والتصوف المزيَّف، فإننا ننصح وننتقد مَن يعمل التصوف بغير علمٍ وبغير أخذه من مصادره، وعلى غير هدْيِ أهله الذين أصَّلوا أصوله، كما نصحح لمَن يشوِّهُه ويحاربه.

ب- القسم الثاني: عَلِمَ التصوفَ ودرسَه ونظره من مصادره ومراجعه، وفهم ما فيه وجعله في ميزان العقيدة والفقه، فأخذ التصوف النوراني المأخوذَ من الكتاب والسنة، ورفض ما لا يقبله الشرع مما يُنسبُ زورًا إلى التصوف، وهذا عين الإنصاف، وهؤلاء هم الصوفية الحقيقيون.

وهذا ما هدَفناه من هذا الكتاب حيث بذلنا الجهد في عرض التصوف عرضًا شرعيًا، لا مجالَ لأحدٍ أن يرده لأنه مستنِدٌ إلى الكتاب والسنة لا يحيد عنهما شعرةً.

بعد هذا العرض أعود لعنوان الفقرة لنصف حال التصوف في يومنا هذا، لن أكتب عن حال التصوف في العالَم لأن المشكلة واحدة عند الكل، وإن كنا نعاني من مخاطر لا توجد عند صوفية بلدٍ آخر والعكس صحيح.

وسأكتفي – قدر إمكاني وقلة علمي- بعرض حال التصوف في منطقتنا شمال لبنان.

فإننا نعاني من أمرين اثنين:

الأول: وهو الأهم: مشكلة داخلية في أهل التصوف، ففي منطقتنا هذه لدينا أمراضُ ومشاكلُ كثيرة:

1- فقدُ المرشد المربي الذي يرى فيه الناس صورةَ المسلم الكامل خُلُقًا وعلمًا وإنصافًا وتقًى وصلاحًا وزهدًا، فإن مَن رفع راية التصوف في منطقتنا تراه انغمس في أمورٍ لوَّثتْ له صفاءه، ونفَّرت الناس منه ومما يحمل من علمٍ صحيح.

وصار العاميُّ يقول إن التصوف فاشلٌ سيئ في إدارة الحياة وتهذيب النفس، ويستدل بفلانٍ وفلانٍ قائلا: انظر لفلانٍ المربي العالِم كيف يغتاب وينم، كيف لا يهتم بحال المسلمين إلا بالكلام والصراخ، هل التصوف هو كلام

وأخلاقٌ سيئة، فتُشوَّه صورة التصوف فيكرهون كلَّ صوفي ولو كان صالحًا. والسبب ممن تسمَّوا باسم المرشد والمربي والعالِم الرباني وهو ليس كذلك.

والسؤال المطروح: من أين أخذوا هذه الألقاب؟؟ هل بالشهادات الخاوية؟ أم بالإجازات السريعة؟ أم بكثرة لقيا الشيوخ؟ أم بمدح بعض العلماء لهم؟ ولو رأى هؤلاء العلماء سلوكَهم وتفرقَهم لحذَّروا الناس من شرِّهم.

وللأسف أن أصحاب الألقاب قد صدَّقوا اتصافهم بها، ويمتعضون وينزعجون إذا سُلِختْ عنهم بذريعة امتهان الدين وعدم احترام العلماء الذين يمثلونهم، فيقول أحدهم مظهرًا التواضع: أنا لم أنزعج لنفسي بل للقيمة التي أمثلها، احتراما للعلم الشرعي وللعمامة و... ولم يعلم أنه بتكالبه على الدنيا وغيبته للخلق وشرهه وطمعه أول من أساء للدين وامتهنه وحاربه.

2- جهل بعض الذين ينتمون إلى التصوف، وجهلهم لدرجة كبيرة حتى وقع بعضُهم في الكفر لاعتقادهم أفكارًا وكراماتٍ مناقضة للعقيدة مناقضةً صريحةً، ولكن النفوس بإغواء الشيطان عميَتْ عن نور العلم.

والمصيبة أنهم يتعلقون بأقوال أهل التصوف ويتخذونها حجة ويفهمونها على غير معناها، كقول بعضهم: العلم حجاب عن الله تعالى والعياذ بالله... وغيرها من الأقوال التي يفهمونها على غير مراد قائليها.

ويلاحظ هنا أن أهل التصوف عندنا قد انقسموا فريقَين: فريقٌ أغلبهم جهلاء من العوام ولديهم زوايا وحضرات، وفريقٌ من أهل العلم وحملة الشهادات وهم بعيدون عن بعضهم فلا يذهب أهل العلم (المشايخ) لينصحوا ويحاولوا – بنَفَسٍ طويلٍ وحكمةٍ- تعليم الجهال.

فإن كانوا لا يعرفون كيفية ذلك، فليتتبعوا خبايا كتب الشعراني ففيها العجب من التفنن في نصح العوام الذين لا يقبلون الحق إلا بحيلة.

ويزيدك أسًى أن كثيرًا من هؤلاء المشايخ لا يهتمون لعقائد العوام ولا لتصوفهم السقيم، بل لا يتحسَّر ولا يحترق باطنه عندما يرى أهل الجهل يتخبطون ويعبدون ربهم كما يريدون وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، فهو يجمع أصحابه المشايخ!!! فيذكرون ويبكون و...و... وهذا جيدٌ، ولكن لو جمعوا بعضهم وداروا على الزوايا ليُكسبوها صبغةً علمية وليؤسسوا دروسًا في هذه الزوايا، بل ليكسروا الحاجز بينهم وبين جهلة المتصوفة المخطئين هداهم الله تعالى، فإن أكثرهم محبون مساكين ولكنهم جاهلون، ولو رأوا قلبًا عطوفًا متواضعًا نصوحًا لقبلوه وعملوا بنصحه وتعليمه.

ولكن ما يزيدُك أسًى وحزنًا ويزيل عجبك أن بعض هؤلاء المشايخ كالعوام تمامًا، ولقد رأيت وسمعتُ كثيرًا ممن يحملون الإجازاتِ الشرعيةَ والماجستير إذا جلسوا

وتكلموا في التصوف لا يتكلمون إلا بسرد الكرامات أو بالتشدق بألفاظ الكمَّل الأكابر ليتخذوها فاكهةً لمجالسهم أو لتكون سلمًا لشهرة.

أو يتكلمون بمصطلحات التصوف العميقة وما يسمى بعلم الحقيقة المحمدية ككلام مولانا سيدي الشيخ ابن عربي رضي الله عنه وغيره مما لا يُدرك إلا ذوقًا ولا يُتوصَّلُ إليه إلا بسلوك وجهاد نفسٍ.

تركوا أصل التصوف وتتبعوا غرائب الكرامات وغرائب الألفاظ، وبهذا يكونون قد ساهموا في تأصيل هذه الأمور في أذهان العامة والشباب المثقفين، في حين أن نفوس السامعين تمتلئُ مشاكل وأمراضًا مختلفة، فكان من الواجب ذكرُ ما ينفع من إرشادات الأئمة لا التغني بأشعار الحلاج أو ابن سبعين وما أغلِقَ من شعر ابن الفارض رحمهم الله تعالى.

ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى.

وقد سرى ذلك إلى كثيرٍ من الإنشاد في حلقات الذكر فترى المنشد ينشد كلام ابن الفارض والإمام عبد الغني النابلسي وغيرهما، من القصائد العرفانية التي لا يصح إنشادها إلا للعارفين والذائقين من السالكين وليس للمريدين المبتدئين أو للعوام.

فتراه يذكر السُّكْر والخمر والعشق وليلى و... مما يحتاج لتأويل، وهذا لا ينبغي أن نُسمعه للعامة، بل يجب أن يُشغل المريد بشدة افتقاره وذله لربه وهضمه لنفسه، وبهذه المعاني يجب الإنشاد أو بذكر صفات أكابر الرجال كأخلاق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومناقب الأكابر فبذكرهم تنزل الرحمات.

وتلاحظ أن هذه المصطلحات مع الصوت الجميل والنغمة الفنية والاهتزاز، تجعل السامع يشعرُ بشعورٍ رائع ويشعر برقة فائقة، ولكنك لا تدري أهو تخديرٌ لك؟ وهل رقتُك رقة نفسٍ وليس رقة قلبٍ؟ فبينهما فرقٌ معروف[32]؟؟

قد أُتَّهَمُ بسوء الظن، ومعاذ الله تعالى ولكن الشيطان يعرف التصوف ويعرف قلوبنا أكثر منا، فأين العلم الذي نكشف به عن مداخل الشيطان إلى القلب وطريقة خداعه وتزيينه لمشاعرنا وإراءتنا ما لا نرى؟!! فكم أضل الشيطان أناسًا بدؤوا بتصوفٍ بسيط لا يرتكز على دعامة من العلم. ولهذا قال الإمام مالك: من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق.

وهدفي من هذا الكلام أن أشير إلى نقصٍ كبيرٍ في بنائنا الصوفي، وفي رؤيتنا وممارستنا الصوفية في حياتنا، فلا تظنَّ إلا خيرًا واقبل النصح من كلِّ أحد.

وكل أمراضنا لأننا أخذنا التصوف عن الكتب وعن مجرد لقاء الشيوخ ساعة وساعتين – ولقاؤهم لا شك فيه بركة وخير وتأثير في النفس ولكنه لا يكفي وليس تربية كاملة إلا نادرًا – ولا يكفي هذا أن نقول أننا تربينا وسلكنا وانتهى الأمر.

32 كمَن يبكي لمشاهدة المسلسلات والمشاهد من الدراما التركية وغيرها، ولا يبكي لسماع آيات القرآن ولو كانت تهز الجبال. فهذا رقيق النفْسِ لا رقيق القلب.

هذا ما دعى العوامل الخارجية لمحاربة التصوف:

فحارب التصوفَ أناسٌ لأسباب:

1- جهلهم بالتصوف كما قدمنا قبل قليل.

2- نظروا إلى أهل التصوف فوجدوهم جاهلين بل وأخلاقهم ليست نبوية، ونظروا إلى مَن يدعي الإرشاد فرأوه مهتمًا بما لا فائدة فيه، ومَن ينتمي للتصوف لا يجرؤ على الجهر به فتجرَّؤوا وسبوا وشتموا وتكالبوا، وما هذا إلا لضعف أهل الحق وتقاعسهم وقلة اهتمامهم وهممهم.

ونظروا إلى مَن يدعي أنه مريد فرأوا فيه النقص والمعائب وقلة الأدب تارة، وحسن الأدب مرة أخرى فحكموا بخداعه وهو جاهلٌ.

والرد على هؤلاء بسيط:

أولًا: في مقدمة هذا الكتاب، قلنا أن من يريد التعرف إلى شيءٍ يرجع إلى أصحاب التخصص فيه ومراجعه ولا يأخذه عن أعدائه.

ثانيًا: نقول: وجود بعض المدعين والكذابين في التصوف لا يضره في شيءٍ، فكل علمٍ من العلوم الإسلامية ظهر فيه كذابون ومنحرفون عنه، فمثلا في علم الحديث ظهرً فيه ناسٌ لم يلتزموا بمنهج هذا العلم فوضعوا الحديث، وكذبوا على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم بحسن نيةٍ أو بخبث نية وحرفوا وبدلوا فواجههم أكابر العلماء كالإمام أحمد وابن حجر والنووي وابن الصلاح وغيرهم رضي الله عنهم.

فهل نقول أن علم الحديث كله باطل وخطأ لوجود هؤلاء الكذابون فيه؟؟!!

أم هل ندعو إلى إلغاء علم الحديث لأنه بابٌ لدخول هؤلاء المفسدين فيه؟؟!!!

وفي علم التفسير أيضًا والعقيدة ظهر مبتدعون ضالون فهل نلغي أهم علومنا لأجل أن هذا العلم كان سببًا لإظهار هذا الكاذب المنحرف الضال؟؟ أم نقوم بالدفاع عن هذا العلم ونبيِّنُ حقيقته وأهميته وأصالته ونصفيه مما يشوِّهه؟ أيهما هو المنهج العلمي الصحيح؟؟؟!!!!

هذا والتصوف كغيره من العلوم الإسلامية، شهد اعتراضات واتهامات ووُجد فيه الخبيث والطيب، وادعاه الصادق والكاذب، فهل نلغيه أو نحاربه كله لوجود الانحراف فيه؟ أم نحارب الخبيث أينما كان وننشر الطيب الذي فيه؟؟!!!

العقل السليم يقول أن الإصلاح يكون بإبقاء الجيد وتنميته ودعمه ونشره، وبمحاربة الفاسد وتبيين مخاطره، وعليه فإصلاح التصوف يكون بنشر محاسنه وأصوله السليمة وأهله الأصليين من كل علمائنا ثم بكشف خبث وجهل المدعي ونصحه وتعليمه.

ثالثًا: أن يظهرَ أهلُ التصوف الصادقون الذين أخذوا التصوف من مصدره وتربَّتْ نفوسهم وهؤلاء بحمد الله موجودون وبعضهم ظاهرٌ ولكن القليل لا يكفي، وقد عرفتُ بعضهم ولكن منهم مَن لا يقوم بالدعوة ويتقاعس، وبعضهم قائمٌ بالدعوة وهو الصحيح الكامل وهذا نادر.

إن زيادة العلم تزيد العبد إنصافًا لخصمه، فالجاهل الأحمق يرمي جرة الذهب لوجود بعض النحاس فيها، والعاقل الحكيم البصير يفرز ويدقق وينفي الرديء ويأخذ الحسَن.

فلا تنظروا إلى أدعياء التصوف وجهلائه وواقعه، كما لا تنظروا إلى العصاة وأهل الكبائر من المسلمين وواقع المسلمين لتحكموا على الإسلام، بل انظروا إلى أهل التصوف الحقيقيين الصادقين المخلصين لتعرفوا الإسلام الكامل بصورته الحقيقية التي أتى به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ملحق

كلام الإمام الشاطبي من كتابه (الاعتصام)

قال الشاطبي في كتابه (الاعتصام) في الباب الثاني:

الوجه الرابع من النقل: ما جاء في ذم البدع وأهلها عن الصوفية المشهورين عند الناس:

وإنما خصَّصْنا هذا الموضع بالذكر، وإن كان فيما تقدم من النقل كفاية، لأن كثيرًا من الجهال يعتقدون فيهم –في الصوفية- أنهم متساهلون في الاتباع، وأن اختراع العبادات والتزامَ ما لم يأتِ في الشرع التزامه مما يقولون به ويعملون، وحاشاهم من ذلك أن يعتقدوه أو يقولوا به.

فأول شيءٍ بنَوا عليه طريقهم: اتباعُ السنة، واجتنابُ ما خالفَها.

حتى زعم مذكرهم، وحافظُ مأخذهم وعمودُ نِحلتهم أبو القاسم القشيري أنهم اختُصُّوا باسم التصوف انفرادًا به عن أهل البدع، فذكر: أن المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتسمَّ أفاضلُهم في عصرهم باسمٍ علَمٍ سوى الصحبة، إذ لا فضيلة فوقها، ثم سمي مَن يليهم بالتابعين ورأَوا هذا الاسم أشرف الأسماء، ثم قيل لمَن بعدهم أتباعُ التابعين، ثم اختلف الناس وتباينتِ المراتب، فقيل لخواصِّ الناس ممن له شدة عناية بأمر الدين: الزهاد والعبَّاد.

قال: ثم ظهرت البدع، وادَّعى كل فريقٍ أن فيهم زهَّادًا وعبَّادًا، فانفرد خواصُّها أهل السنة المراعون أنفاسهم مع الله الحافظون قلوبهم عن الغفلة باسم التصوف.

هذا معنى كلامه، فقد عدَّ هذا اللقبَ لهم مخصوصًا باتباع السنة ومباينة البدعة، وفي ذلك ما يدل على خلاف ما يعتقده الجهَّال ومَن لا عبرة به من المدَّعين للعلم.

وفي غرضي – إن فسح الله في المدة وأعانني بفضله ويسَّر لي الأسباب – أن ألخِّصَ في طريقة القوم أي الصوفية أنموذجًا يُستدل به على صحتها وجريانها على الطريقة المثلى، وأنه إنما دخلتها المفاسد وتطرَّقتْ إليها البدع من جهة قومٍ تأخرتْ أزمانهم من عهد ذلك السلف الصالح، وادَّعَوا الدخول فيها من غير سلوك شرعي، ولا فهم لمقاصد أهلها، وتقوَّلوا عليهم ما لم يقولوا به حتى صارتْ في هذا الزمان أي زمنِه هو كأنها شريعة أخرى غير ما أتى به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وأعظم من ذلك أنهم يتساهلون في اتباع السنة، ويرَون اختراع العبادات طريقًا للتعبُّد صحيحًا، وطريقة القوم بريئة من هذا الخباط بحمد الله تعالى.

فقد قال الفُضيل بن عياض: من جلس مع صاحبٍ بدعة لم يُعطَ الحكمة.

وقال ذو النون المصري: من علامات المحبة لله متابعة حبيب الله صلى الله عليه وسلم في أخلاقه وأوامره وسننه.

وقال أيضًا: إنما دخل الفساد على الخلق من ستة أشياء:

الأول: ضعف النية بعمل الآخرة.

والثاني: صارت أبدانهم رهينة لشهواتهم.

والثالث: غلبَهم طول الأمل مع قصر الأجل.

والرابع: آثروا رضا المخلوقين على رضا الله.

والخامس: اتبعوا أهواءهم ونبذوا سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم.

والسادس: جعلوا زلاتِ السلف حجة لأنفسهم ودفنوا أكثر مناقبهم.

وقال بِشر الحافي: رأيتُ النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، فقال لي: يا بشر، أتدري لم رفعك الله بين أقرانك؟ قلت: لا يا رسول الله. قال: باتباعك لسنتي، وخدمتك للصالحين، ونصيحتك لإخوانك، ومحبتك لأصحابي وأهل بيتي، هو الذي بلّغك منازل الأبرار.

وقال يحيى بن معاذ الرازي: اختلاف الناس كلهم يرجع إلى ثلاثة أصول، فكل واحد منها ضدٌّ، فمن سقط عنه وقع في ضده: التوحيد وضده الشرك، والسنة وضدها البدعة، والطاعة وضدها المعصية.

وقال أبو بكر الزقاق – وكان من أقران الإمام الجنيد -: كنتُ مارًّا في تيه بني إسرائيل، فخطر ببالي أن علم الحقيقة مباينٌ لعلم الشريعة، فهتف بي هاتف: كل حقيقة لا تتبعها الشريعة فهي كفر.

وقال أبو علي الحسن بن علي الجوزَجاني: من علامات السعادة على العبد: تيسير الطاعة عليه، وموافقة السنة في أفعاله، وصحبته لأهل الصلاح، وحسن أخلاقه، وبذلُ معروفه للخلق، واهتمامه للمسلمين، ومراعاته لأوقاته.

وسئل: كيف الطريق إلى الله؟

فقال: الطرق إلى الله كثيرة، وأوضح الطرق وأبعدها عن الشبه: اتباع السنة قولًا وفعلًا وعزمًا وعقدًا أي اعتقادًا ونية، لأن الله يقول: (وإن تطيعوه تهتدوا).

فقيل له: كيف الطريق إلى السنة؟

فقال: مجانبة البدع، واتباع ما اجتمع عليه الصدر الأول من علماء الإسلام، والتباعد عن مجالس الكلام وأهله[33]، ولزوم طريقة الاقتداء، وبذلك أُمِرَ النبي صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (ثم أوحينا إليك أنِ اتبع ملة إبراهيم حنيفًا).

وقال أبو بكر الترمذي: لم يجد أحدٌ تمام الهمة بأوصافها إلا أهل المحبة، وإنما أخذوا ذلك من اتباع السنة ومجانبة البدعة، فإن سيدنا محمدًا كان أعلى الخلق همة، وأقربهم زلفة.

وقال أبو الحسين الوراق: لا يصل العبد إلى الله إلا بالله، وبموافقة حبيبه صلى الله عليه وسلم في شريعته، ومَن جعل الطريق إلى الوصول في غير الاقتداء، يضِل من حيث يظن أنه مهتدٍ.

وقال: الصدق: استقامة الطريقة في الدين، واتباع السنة في الشرع.

وقال: علامة محبة الله تعالى متابعة حبيبه صلى الله عليه وسلم.

ومثله عن إبراهيم القصار قال: علامة محبة الله: إيثار طاعته، ومتابعة نبيه.

وقال أبو علي محمد بن عبد الوهاب الثقفي: لا يقبل الله إلا ما كان صوابًا، ومن صوابها إلا ما وافق السنة.

وقال أبو بكر بن أبي سعدان وهو من أصحاب الجنيد وغيرُه: الاعتصام بالله هو الامتناع به من الغفلة والمعاصي والبدع والضلالات.

وقال أبو عمرو الزجاجي وهو من أصحاب الجنيد والنوري وغيرهما: كان الناس في الجاهلية يتَّبعون ما تستحسنه عقولهم وطبائعهم، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فردهم إلى الشريعة والاتباع، فالعقل الصحيح هو الذي يستحسن ما يستحسنه الشرع، ويستقبح ما استقبحه.

وقال أبو عثمان المغربي: التقوى هي الوقوف مع الحدود لا يقصر فيها ولا يتعداها، قال تعالى (ومن يتعدَّ حدود الله فقد ظلم نفسه).

وقال أبو يزيد البسطامي: عملتُ في المجاهدة ثلاثين سنة، فما وجدتُ شيئًا أشد علي من العلم ومتابعته، ولولا اختلاف العلماء لشقيتُ، واختلاف العلماء رحمة إلا في تجريد التوحيد.

ومن متابعة العلم متابعة السنة لا غيرها.

وروي عنه – عن أبي يزيد- أنه قال لأحد أصحابه: قم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذي شهر نفسه بالولاية – وكان رجلًا مقصودًا ومشهورًا بالزهد- قال الراوي: فمضَينا، فلما خرج الزاهد من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقة تجاه القبلة،

33 المقصود بهم علماء الكلام الذين غرقوا في خضم الفلسفات وتلوثوا بلوثاتها وعقَّدوا المباحث السهلة، أما الذين أحكموا زمام هذا العلم وجعلوه سلاحًا في وجه الفلسفات والتيارات الفكرية المنحرفة، فالجلوس إليهم فائدة عظيمة خاصة في عصرنا، وخاصة إذا انطوَوا على صدقٍ وإخلاصٍ وروح مشرقة.

فانصرف أبو يزيد ولم يسلِّم عليه وقال: هذا غير مأمون على أدبٍ من آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكيف يكون مأمونًا على ما يدعيه.

وهذا أصلٌ أصَّله أبو يزيد للقوم، وهو أن الولاية لا تحصل لتارك السنة وإن كان ذلك جهلًا منه، فما ظنك إذا كان عاملًا بالبدعة كفاحًا.

وقال: لو نظرتم إلى رجلٍ أعطيَ من الكرامات حتى يرتقي في الهواء، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وآداب الشريعة.

وقال سهل التستري: كل فعلٍ يفعله العبد بغير اقتداء فهو عيش النفس يعني باتباع الهوى.

وكل فعلٍ يفعله العبد بالاقتداء فهو عتاب على النفس يعني لأنه لا هوى له فيه.

واتباع الهوى هو المذموم، ومقصود القوم تركه ألبتة.

وقال سهل: أصولنا سبعة أشياء: التمسك بكتاب الله والاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأـداء الحقوق.

وقال أبو سليمان الدراني: ربما تقع في قلبي النكتة من نُكت القوم أيامًا، فلا أقبل منه إلا بشاهدَن عدلَين: الكتاب والسنة.

وقال أحمد بن أبي الحواري: من عمل عملًا بلا اتباع سنة، فباطلٌ عمله.

وقال أبو حفص الحداد: من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقتٍ بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره فلا تعدَّه في ديوان الرجال.

وسئل عن البدعة، فقال: التعدي في الأحكام، والتهاون في السنن، واتباع الآراء والأهواء وترك الاتباع والاقتداء.

وقال: وما ظهرتْ حالةٌ عالية إلا من ملازمة أمرٍ صحيح.

وسئل حمدون القصار: متى يجوز للرجل أن يتكلم على الناس؟ فقال: إذا تعين عليه أداء فرض من فرائض الله في عمله، أو خاف هلاك إنسان في بدعة يرجو أن ينجيه الله عنها.

وقال: من نظر في سيَر السلف، عرف تقصيره وتخلفه عن درجات الرجال.

وهذه والله أعلم إشارة إلى المثابرة على الاقتداء بهم فإنهم أهل السنة.

وقال أبو القاسم الجنيد لرجل ذكر المعرفة، وقال: أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله، فقال الجنيد: إن هذا قول قومٍ تكلموا بإسقاط الأعمال، والذي يسرق ويزني أحسن حالًا من الذي يقول هذاً، وإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله تعالى وإليه يرجعون فيها.

وقال: لو بقيتُ ألف عامٍ لم أنقص من أعمال البر ذرة، إلا أن يُحال بي دونها.

وقال: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقال: من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر لأن علمنا هذا مقيَّد بالكتاب والسنة.

وقال: علمنا هذا مشيَّد بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال أبو عثمان الحيري: الصحبة مع الله تعالى بحسن الأدب ودوام الهيبة والمراقبة، والصحبة مع الرسول باتباع سنته ولزوم ظاهر العلم، والصحبة مع أولياء الله بالاحترام والخدمة..... إلى آخر ما قال.

وقال: من أمَّرَ السنة على نفسه قولًا وفعلًا نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولًا وفعلًا نطق بالبدعة، قال الله تعالى (وإن تطيعوه تهتدوا).

وقال أبو الحسين النوري: مَن رأيتَه يدَّعي مع الله حالة تخرجه عن حدِّ العلم الشرعي فلا تقربنَّ منه.

وقال محمد بن الفضل البلخي: ذهاب الإسلام من أربعة:

لا يعملون بما يعلمون.

ويعملون بما لا يعلمون.

ولا يتعلمون ما لا يعلمون.

ويمنعون الناس من التعلم.

قال الشاطبي: هذا ما قال، وهو وصف صوفيتنا اليوم، عياذًا بالله.

وقال: أعرفُهم بالله أشدهم مجاهدة في أوامره، وأتبعهم لسنة نبيهم.

وقال شاه الكرماني: مَن غضَّ بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشبهات، وعمَّرَ باطنه بدوام المراقبة وظاهره باتباع السنة، وعوَّدَ نفسَه أكل الحلال لم تخطئ له فراسة.

وقال أبو سعيد الخراز: كل باطنٍ يخالفه ظاهر فهو باطل.

وقال أبو العباس بن عطاء وهو من أقران الجنيد: من ألزمَ نفسه آداب السنة نوَّرَ الله قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب صلى الله عليه وسلم في أوامره وأفعاله وأخلاقه.

وقال: أعظم الغفلة غفلةُ العبد عن ربه عز وجل، وغفلته عن أوامره ونواهيه وغفلته عن آداب معاملته.

وقال إبراهيم الخواص: ليس العلم بكثرة الرواية، إنما العالم من اتبع العلم واستعمله، واقتدى بالسنن وإن كان قليل العلم.

وسئل عن العافية، فقال: العافية أربعة أشياء: دين بلا بدعة، وعمل بلا آفة، وقلب بلا شغل، ونفس بلا شهوة.

وقال: الصبر: الثبات على أحكام الكتاب والسنة.

وسئل بنان الحمال عن أجلِّ أحوال الصوفية فقال: الثقة بالمضمون، والقيام بالأوامر، ومراعاة السر، والتخلي عن الكونَين.

وقال أبو حمزة البغدادي: من علِم طريق الحق سهُل عليه سلوكه، ولا دليل على الطريق إلى الله إلا متابعة سنة الرسول صلى الله عليه وسلم في أحواله وأفعاله وأقواله.

وقال ممشاد الدِّينَوَري: أدب المريد في التزام حرمات المشايخ، وخدمة الإخوان، والخروج عن الأسباب، وحفظ آداب الشرع على نفسه.

وسئل أبو علي الروذباري عمن يسمع الملاهي، فقال هي حلالٌ لي لأني قد وصلتُ إلى درجة لا يؤثر فيَّ اختلاف الأحوال؟ فقال: نعم وصل، ولكن إلى سقر.

وقال أبو محمد عبد الله بن منازل: لم يضيِّعْ أحد فريضة من الفرائض إلا ابتلاه الله بتضييع السنن، ولم يُبتلَ أحد بتضييع السنن إلا يوشك أن يبتلى بالبدع.

وقال أبو يعقوب النهرجوري: أفضل الأحوال ما قارن العلم.

وقال أبو عمرو بن نُجَيد: كل حال لا يكون عن نتيجة علم، فإن ضرره على صاحبه أكثر من نفعه.

وقال بندار بن الحسين: صحبة أهل البدع تورِث الإعراض عن الحق.

وقال أبو بكر الطُّمَستاني: الطريق واضح، والكتاب والسنة قائم بين أظهرنا، وفضل الصحابة معلوم لسبقهم إلى الهجرة ولصحبتهم، فمَن صحب منا الكتاب والسنة وتغرَّبَ عن نفسه والخلق، وهاجر بقلبه إلى الله فهو الصادق المصيب.

وقال أبو القاسم النصراباذي: أصل التصوف: ملازمة الكتاب والسنة، وترك الأهواء والبدع، وتعظيم حرمات المشايخ، ورؤية أعذار الخلق، والمداومة على الأوراد، وترك ارتكاب الرخص والتأويلات.

بعد هذه الأقوال التي نقلها الشاطبي، يضيف قائلًا:

وكلامهم في هذا الباب يطول، وقد نقلنا عن جملة ممن اشتهر منهم، جميعهم يشير أو يصرِّح بأن الابتداعَ ضلال، والسلوكَ عليه تيهٌ، واستعمالَه رميٌ في عماية، وأنه منافٍ لطلب النجاة، وصاحبه غير محفوظ، وموكول إلى نفسه، ومطرود عن نيل الحكمة، وأن الصوفية الذين نسبت إليهم الطريقة مجمعون على تعظيم الشريعة،

مقيمون على متابعة السنة، غير مخلين بشيءٍ من آدابها، أبعد الناس عن البدع وأهلها.

ولذلك لا نجد منهم مَن يُنسَب إلى فرقة من الفرق الضالة، ولا مَن يميل إلى خلاف السنة.

وأكثر من ذُكر منهم علماء وفقهاء ومحدِّثون وممن يؤخذ عنه الدين أصولًا وفروعًا، ومن لم يكن كذلك فلا بد من أن يكون فقيهًا في دينه بمقدار كفايته.

وهم كانوا أهل الحقائق والمواجد والأذواق والأحوال والأسرار التوحيدية، فهم الحجة لنا على كل من ينتسب إلى طريقهم ولا يجري على منهاجهم، بل يأتي ببدعٍ محدَثاتٍ وأهواء متَّبَعات، وينسبها إليهم تأويلًا عليهم، من قول محتمل أو فعلٍ من قضايا الأحوال، أو استمساكًا بمصلحةٍ شهِدَ الشرع بإلغائها أو ما أشبه ذلك.

فكثيرًا ما ترى المتأخرين ممن يتشبه بهم يرتكب من الأعمال ما أجمع الناس على فساده شرعًا، ويحتج بحكاياتٍ هي قضايا أحوال -إن صحت- لم يكن فيها حجة لوجوهٍ عدة، ويترك من كلامهم وأحوالهم ما هو أوضحُ في الحق الصريح والاتباع الصحيح، شأن من اتبع من الأدلة الشرعية ما تشابه منها.

ولما كان أهل التصوف في طريقهم بالنسبة إلى إجماعهم على أمر كسائر أهل العلوم في علومهم، أتيتُ من كلامهم بما يقوم منه دليل على مدح السنة وذم البدعة في طريقتهم، حتى يكون دليلًا لنا من جهتهم على أهل البدع عمومًا، وعلى المدَّعين في طريقهم خصوصًا، وبالله التوفيق.

ثم يقول الإمام الشاطبي في الباب الثالث في الفصل السابع منه:

وحاصل ما يرجع إليه لفظ التصوف عندهم معنيان:

أحدهما: أنه التخلُّقُ بكلِّ خلُقٍ سنيٍّ، والتجرُّد عن كل خلُقٍ دنيٍّ.

والآخَر: أنه الفناء عن نفسه، والبقاء بربه.

وهما في التحقيق يرجعان إلى معنى واحد، إلا أن أحدهما يصلُحُ التعبير به عن البداية، والآخَر يصلح التعبير به عن النهاية.

وكلاهما اتصافٌ إلا أن الأول لا يلزمه الحال، والثاني يلزمه الحال.

وقد يعتبر فيهما بلحظٍ آخر: فيكون الأول عملًا تكليفيًّا والثاني نتيجته.

ويكون الأول اتصاف الظاهر والثاني اتصاف الباطن.

ومجموعهما هو التصوف.

وإذا ثبت هذا، فالتصوف بالمعنى الأول لا بدعة في الكلام فيه لأنه يرجع إلى التفقه الذي ينبني عليه العمل وتفصيل آفاته وعوارضه .... وهو فقه صحيح، وأصوله في الكتاب والسنة ظاهرة، فلا يقال في مثله بدعة......

وأما بالمعنى الثاني – أي الفناء بنفسه والبقاء بربه – فهو على أضرب:

أحدهما يرجع إلى العوارض الطارئة على السالكين، إذا دخل عليهم نور التوحيد الوجداني فيُتكلَّم فيها بحسب الوقت والحال، وما يُحتاج إليه في النازلة الخاصة، رجوعًا إلى الشيخ المربي وما بيَّنَ له في تحقيق مناطها بفراسته الصادقة في السالك بحسَبه وبحسَب العارض، فيداويه بما يليق به من الوظائف الشرعية والأذكار الشرعية، أو بإصلاح مقصده إن عرضَ فيه العارض، فقلما يطرأ العارض إلا عند الإخلال ببعض الأصول الشرعية التي بنى عليها في بدايته، فقد قالوا: إنما حُرموا الوصول بتضييعهم الأصول، فمثل هذا لا بدعة فيه لرجوعه إلى أصلٍ شرعي.

ففي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم جاءه ناسٌ من أصحابه، قالوا: يا رسول الله، إنا نجدُ في أنفسنا الشيءَ يعظُمُ أن نتكلم به – أو الكلام به – ما نحب أنَّ لنا وأنا تكلمنا به.

قال: أَوَقد وجدتموه؟ قالوا: نعم، قال: ذلك صريح الإيمان.

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: جاء رجلٌ إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسولَ الله، إن أحدنا يجد في نفسه يعرض بالشيء لأَنْ يكون حُمَمَةً أحب إليه من أن يتكلم به، قال: الله أكبر، الله أكبر، الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة.

وفي حديث آخر: مَن وجد من ذلك شيئًا فليقلْ: آمنتُ بالله.

وعن ابن عباسٍ في مثله: إذا وجد شيئًا من ذلك، فليقل: هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيءٍ عليم.... إلى أشباه ذلك، وهو صحيح مليح.

والرابع يرجع إلى النظر في حقيقة الفناء من حيث الدخول فيه والاتصاف بأوصافه، وقطع أطماع النفس عن كل وجهة توصل إلى غير المطلوب وإن دقتْ، فإن أهواء النفوس تدق وتسري مع السالك إلى المقامات فلا يقطعها إلا من حسم مادَّتها وبتَّ طلاقها وهو الفناء المذكور.

وهذا نوع من أنواع الفقه المتعلق بأهواء النفوس، ولا يُعدُّ من البدع لدخوله تحت جنس الفقه، لأنه وإن دقَّ – خَفِيَ- راجعٌ إلى ما جلَّ من الفقه، ودقته وجِلَّتُه إضافيان، والحقيقة واحدة...... انتهى بتصرف.

وهذا الكلام الذي نقلتُه عن الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى صريحٌ في مدح التصوف الحق والصوفية الحقيقيين.

وبعد هذا البيان من هذا الإمام الجليل الفقيه الأصولي لا يليق بالعاقل العالِم ذمُّ التصوفأو الصوفية بإطلاق. وإنما يُذّمُّ مِن كل عملٍ أو جماعةٍ ما خالف الكتاب والسنة وهدي السلف الصالح رضي الله عنهم.

ويجب التنبيه أن في كتاب الاعتصام، اعترضَ الإمام الشاطبي على بعض أحوال وأفعال الصوفية، واعتبرها مخالفة للسنة، ولعله فاته أو غفل رحمه الله عن أدلتهم في ذلك، فلم يرتضِ أهل التصوف إنكاره عليهم ذلك لا لهوًى بل لأن سائر أفعالهم قائمة على أركان الدليل الشرعي من الكتاب والسنة، إلا ما استحسنوه من أفعال الشيوخ مما يدخل تحت حكم الأصل بالإباحة.

رحم الله الإمام الشاطبي وجزاه خيرًا على جهده فإنه انتقد للحق لا للهوى، ولم يصدر حكمه بالمدح أو النقد إلا للحق وإخلاص النصح والحب، وهذا عين الإنصاف.

عقيدة أهل السنة والجماعة على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم وطرقهم[34]

قال الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه في الفقه الأبسط: اعلم أن الفقه في الدين أفضل من الفقه في الأحكام، والفقه معرفة النفس ما لها وما عليها.

وقال: أصل التوحيد وما يصح الاعتقاد عليه وما يتعلق منها بالاعتقاديات هو ذاك الفقه الأكبر.

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه: أحكمْنا هذا قبل ذاك. أي أتقنَّا علم التوحيد قبل فروع الفقه.

وقال الإمام أبو الحسن الأشعري رضي الله عنه: أول ما يجب على العبد العلم بالله ورسوله ودينه.

لهذا فمن المفيد والواجب الشرعي تبيين عقيدة أهل السنة والجماعة – الأشاعرة والماتريدية – التي اتفقتْ عليها الأمة عبر القرون إلا مَن شذَّ وضلَّ وابتدع.

وبما أنه ظهرَ من يكفِّر أو يضلِّل الأشاعرة والصوفية، سنوردُ مجمَل اعتقاد الأشاعرة أهل السنة، وهي العقيدة التي كان عليها الأئمة الأربعة المجتهدين (أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد) رضي الله عنهم واشتُهرتْ باسم إمامَيْ أهل السنة والجماعة أبي الحسن الأشعري وأبي منصور الماتريدي رضي الله عنهما.

وكذلك هي عقيدة السادة الأئمة الأقطاب أجمعين: كالإمام الباز الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه، والإمام الكبير الشيخ أحمد الرفاعي رضي الله عنه، والإمام سيدي أحمد البدوي رضي الله عنه، والإمام سيدي إبراهيم الدسوقي رضي الله عنه، وغيرهم كالشيخ محمد بهاء الدين شاه نقشبند رضي الله عنه، والإمام أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه، وجميع الأولياء والصالحين. وعليها نلقى الله تعالى.

فاعلم أنه يجب على كل مسلمٍ أن يعتقد أن الله عز وجل موجودٌ لا كالموجودات ولا يشبه منها شيئًا، فهو سبحانه ذاتٌ موصوفٌ بكل كمال يليق به (لأنه من الكمال ما يليق بالمخلوق ولا يليق بالله كوصف الإنسان برجاحة العقل والخشية) فلا يجوز وصف الله إلا بما وصف به نفسه، فلا يشبَّه الله تعالى بخلقه ولو بصفة واحدة.

ولا يقاس الخالق على المخلوق فإنه سبحانه لا تدركه العقول.

---

34 من كتاب (إتحاف الأكابر في سيرة ومناقب الإمام محيي الدين عبد القادر الجيلاني الحسني الحسيني، وبعض مشاهير ذريته أولي الفضل والمآثر) للشيخ عبد المجيد بن طه الدهيبي الزعبي الجيلاني حفظه الله تعالى.

ويستحيل عليه سبحانه وتعالى وصفه في مكان أو جهة أو أنه حالٌّ بالعالم أو أنه محيطٌ بالعالم بذاته، ويستحيل عليه الوصف بالحد والجسم أو الأعضاء و الجوارح وكل ما هو من صفات المخلوقين، فإن الخالق سبحانه لا يشبه مخلوقه، إذ لو كان الله يوصف بصفة من صفات خلقه لكان له أشباه كثيرة ولكان كخلقه، ولو كان كخلقه لم يكن خالقًا للخلق مبدعًا له.

فهو الأول القديم الذي لا بداية له وما سواه له بداية.

وهو الآخر الباقي الذي لا نهاية له، فلا موجود أزلي أبدي بذاته إلا الله تعالى، أما بقاء الجنة والنار ليس ذاتيًا بل بإبقاء الله لهما.

وهو سبحانه سميعٌ بسمعٍ أزلي أبدي ليس بجارحة كسمعنا.

وبصير ببصر ليس بحدقة أو جارحة كبصرنا.

وهو مدبر قائم بنفسه ليس بحاجة لأحد من خلقه، وكل ما سواه بحاجة إليه لا يستغني عنه طرفة عين.

وهو واحد لا شريك له، أحدٌ لا يتجزأ ليس مركبًا ولا متبعِّضًا سبحانه.

وهو حي بحياة أزلية أبدية ليست كحياتنا لا يفنى ولا يسهو ولا يغفل.

وهو سبحانه مخالفٌ للمخلوقات لا يشبه شيئًا من خلقه، خلق الخلق لا لحاجة، ولكن إظهارًا لقدرته فلا يحتاج إلى مكان ليحل فيه أو يسكنه، فكما أنه منزَّهٌ عن الجهة السفلية وعن الحلول فيها لأنها مخلوقة، فهو أيضًا منزَّهٌ عن أن تحويه جهة من الجهات الأخرى التي منها جهة العلو لأنها مخلوقة، فكما صحَّ وجود الله قبل وجود الخلق وقبل وجود المكان والعرش والجهات الست صحَّ وجوده تعالى بعد أن خلقها من غير أن يكون في شيء من خلقه أو عليه أو منه.

وهو خالق الأجسام الكثيفة كالإنسان والجبال، والأجسام اللطيفة كالروح والنور والهواء، وهو خالق الأشكال والصور والهيئات والكيفية والحدود فلا يشبه شيئًا منها.

ولا يقال لا نعرف كيفية الله أو كيفية صفاته لأن في ذلك إثبات الكيفية لله تعالى مع جهل حقيقتها.

وفي خلق الله تعالى مخلوقات كثيرة لها كيفية، ولا نعرف كيفيتها.

والكيف يُطلق على ما له حد وطول وعرض وشكل وصورة وعلى كل جسم كثيف أو لطيف، والله لا يشبه شيئًا من ذلك، قال الله تعالى (ليس كمثله شيءٌ) [الشورى:11].

وهو سبحانه وتعالى عالمٌ بعلمٍ أزلي أبدي لا يزداد ولا ينقص، عَلِمَ الأشياء قبل حصولها.

وهو سبحانه قادرٌ بقدرة أزلية قادرة على إيجاد الممكن وإعدامه، وقدرته تامة كاملة.

وهو الخالق لكل شيءٍ وبإرادته كل شيء، فكل ما دخل في الوجود فهو بعلم الله تعالى وخلقه وقدرته وإرادته.

والخير بأمره ومحبته ورضاه، والشر لا بأمره ولا محبته ولا رضاه، فكل شيءٍ بقضاء وقدَر أي بخلق الله ومشيئته.

والإرادة والمشيئة شيء واحد وهي تابعة للعلم، فما علم الله كونه أراد كونه، في الوقت الذي علم الله أنه يكون فيه، فعلمه تعالى لا يتغير ومشيئته لا تتغير.

والمشيئة ليست بمعنى الأمر ولا تابعة للأمر، فلا يقال: كلُّ شيءٌ بأمر الله، ولكن يقال: كلُّ شيءٍ بتقدير الله أي بمشيئته، فقد يأمر الله بشيءٍ ولم يشأ وجوده كما أمر الله إبراهيم بذبح ولده، فنفَّذ الأمر بالذبح ولكن الله لم يشأ ذبح إسماعيل.

والله خالقٌ لكل شيءٍ وقدر وشاء كلَّ شيءٍ، فلا يجري في الوجود شيءٌ إلا بعلمه وإرادته ومشيئته، وإلا لكان مجبَرًا غيرَ مختار، فعلْمُ الله تعالى أن فلان من أهل الكفر لا يعني جبره على ذلك، فالله تعالى قدَّر وشاء كفره، والعبد ينساق إلى الكفر باختياره، ويعلم الله اختياره ويشاؤه أزلًا.

فلا يكون العبد مجبَرًا ولا يكون اختياره بغير مشيئة الله تعالى.

وهو سبحانه وتعالى موصوفٌ بالكلام فهو متكلمٌ بكلام أزلي قديم ليس بحرف ولا صوت ولا لغة ككلام المخلوقين.

والقرآن كلام الله تعالى وله إطلاقان بمعنيان: فإن أُطلق على كلام الله الذاتي الأزلي فليس بحرف ولا صوتٍ، والصوت واللفظ والتلاوة مخلوقة، والمتلو كلام الله غير مخلوق، أي المعبَّر عنه وهو كلام الله الأزلي ليس بمخلوق.

وإذا كان اللفظ مخلوقًا فلا يعني أن المعنى الذي يُعبَّرُ عنه مخلوق، فإذا كتبنا على الوح لفظ (الله) فقيل هذا الله، فهل معنى هذا أن أشكال الحروف المرسومة هي عين الله وذاته؟ لا يتوهم هذا عاقل، والذي نفهمه أن الحروف مخلوقة تعبر عن الإله الذي هو موجود معبود خالق لكل شيء.

قال أهل السنة: لو كان يجوز على الله تعالى أن يتكلم بالحرف والصوت لجاز عليه ما يجوز على المخلوق والله لا يشبه شيئًا من خلقه.

وقالوا: لَما كان أسرع الحاسبين كما قال سبحانه. وذلك لأن الله يكلم كل إنسان يوم القيامة، فيسمعه كلامه، ويحاسبهم فيَفهَمُ العبد من كلام الله السؤالَ عن أفعاله وأقواله واعتقاداته، وينتهي الله من حسابهم في لحظة من موقفٍ من مواقف يوم القيامة.

فلو كان حساب الله لخلقه من إنسٍ وجنٍّ بالحرف والصوت وعلى حسب لغة كلِّ إنسان ما كان ينتهي حسابهم في مئة ألفِ سنة، لأن الخلق كثير ومنهم مَن أعمارهم طويلة ولهم لغات مختلفة.

وما نُسبَ إلى الإمام الشيخ عبد القادر الجيلاني أنه نَقَلَ عن الإمام أحمد أن الحروف ليست مخلوقة فهو كذب وافتراء، وحاشاهما من ذلك، رضي الله عنهما.

وروى حنبل عن عمه الإمام أحمد بن حنبل قال: لم يزل الله متكلِّمًا والقرآن كلام الله تعالى غير مخلوق.

وروى عبد الله عن أبيه الإمام أحمد أنه قال: من قال لفظي بالقرآن مخلوق يريد به أن القرآن مخلوق فهو كافر.

وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: نحن نتكلم بالآلات والحروف، والله متكلمٌ بلا آلة ولا حرف.

فالكلمات والحروف التي نقرأها في القرآن هي من جملة ما كُتب على اللوح المحفوظ، واللوح مخلوق والقلم كتب بأمر الله على اللوح، فإذا كان اللوح مخلوقًا والورقة والقلم والحبر كلها مخلوقة وما كُتب على الصحيفة يُمحى بعدما كُتب، وصفات الله لا تتغير، والله لا يحل في شيءٍ، وصفاته لا تحل في شيءٍ، فكيف يقول قائل إن كلام الله الذاتي حروف وأصوات، وهي حالَّةٌ في المصحف وينطق بها مخلوق؟! وهل يصح أن يكون كلام المتكلم قائمًا بغيره.

وبالجملة فكلامه سبحانه ليس ككلامنا ولا يشبهه بشيءٍ مطلَقًا.

فكما أن ذات الله تعالى لا كيف له كذلك صفاته لا كيف لها، والتفكر في ذات الله تعالى يوصل إلى الكفر لأنه كما قال العلماء: لا يعرف الله على الحقيقة إلا الله.

وإنما الواجب علينا أن نعرف أن الله موجود موصوف بصفات تليق به تدل على الكمال مع نفي الكيفية عنها، وأن ننزِّهَه عن كل ما لا يليق به، فكل ما يُتصوَّر في العقل وتدركه العقول والأوهام لا يليق وصف الله به، فالعقل يدرك أن لهذا العالَم خالقًا لأنه لا يصح في العقل وجود فعلٍ من دون فاعل ولا صنعة من دون صانع، فالعالم يدلُّ على أن خالقًا بارئًا مصوِّرًا مبدِعًا أوجده من العدم، والعقل يدرك بداهةً أن الصانع لا يشبه صنيعه.

أما غير ذلك فلا يُطلَبُ منا.

وقال الإمام البخاري رضي الله عنه: ..... فأما المقروء المثبَت في المصاحف المسطور المكتوب الموعى في القلوب فهو كلام الله ليس بخلق ولا مخلوق، قال الله تعالى: (بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ) وقال سبحانه (بل هو آياتٌ بيناتٌ في صدور الذين أوتوا العلم).

ثم قال: فأما المداد -الحبر- والرَّق -الورق- ونحوه فإنه خلق -أي مخلوق- كما أنك تكتب (الله) فالله سبحانه في ذاته هو الخالق، وخطك واكتسابك من فعلك خلق.

ومعنى كلامه أنك إذا قلتَ (الله) فتلاوتك لهذا الذكر مخلوقة، والمذكور (الله) ليس بمخلوق، كذلك اللفظ المنزَّل للقرآن وإن كان مخلوقًا دلَّ على كلام الله الأزلي، لأنه عبارةٌ عنه فيسمى أيضًا كلام الله، ولأنه ليس من تأليف أحد، أنزله الله علينا بلغة عربية، والإنجيل باللغة السريانية لغةِ عيسى صلى الله عليه وسلم، والتوراة باللغة العِبرية لغةِ موسى صلى الله عليه وسلم، وكلُّ ذلك دالٌّ على كلام الله الأزلي أي هي عبارات وألفاظ تدلُّ على الكلام الذاتي الأزلي الذي ليس بلغة عربية ولا سريانية ولا عبرية ولا لغة من اللغات، لا يشبه كلام الخلق، متكلم سبحانه أزلا وأبدًا بلا كيف ولا تشبيه.

فكيف يُنسبُ للإمام أحمد والإمام سيدي عبد القادر الجيلاني رضي الله عنهما كلامٌ فيه عين التشبيه؟ وهما ممن أجمعتِ الأمة على كمال وصدقِ متابعتهما للنبي صلى الله عليه وسلم، وهما أعرف بالله من كثير من عامة علماء الأمة.

وكلٌّ منهما يقول في آيات الصفات: أُمرُّها من غير تعطيل ولا تشبيه.

واعلم أن صفات الله تعالى منها ما يُعرَفُ عن طريق النقل – الكتاب والسنة – مع العقل، فمَن جحد صفة من هذه الصفات يكون كافرًا، كأن نفى وجوده تعالى أو قدرته أو علمه أو سمعه وكل ما يعرف عن طريق العقل، لأن الله تعالى لا يوصف بمضاداتها فالله يوصف بالقدرة فنفْيُ هذه الصفة معناه وصفه بالضعف، ونفي صفة العلم معناه وصفه بالجهل، وهذا محالٌ على الله تعالى، وهكذا.

ومن صفاته تعالى ما لا يُعرَفُ إلا بطريق النقل فقط، فمَن أنكر صفة من هذه الصفات لعدم علمه يُعذَر ولا يَكفُر إلا إذا أُعطيَ الدليل فأنكرَ فعندها يكفُر، كعدم علمه مثلا بأن الله موصوفٌ باليد والوجه فإن هذا لا يُعرَفُ إلا عن طريق النقل فمَن جحد بها بعد بيان ذلك وتوضيحه كفر.

واعلم أن ما وصف الله به نفسه بما يعرف عن طريق العقل أو عن طريق النقل فهو صفة له بلا كيف ولا تشبيه.

فيقال مثلا: الله موصوف باليد بلا كيف، وموصوف باليمين بلا كيف، وموصوف بالعين بلا كيف.

ومعنى بلا كيف أي ليس كما يخطُرُ في الأذهان من الأعضاء والجوارح، وكذلك كل آية متشابهة يوهم ظاهرها نسبة الجهة لله أو المكان أو الحلول أو غير ذلك مما يخطُرُ في الأذهان فمعناه غيرُ ظاهره المتبادِر إلى الذهن، فإنه سبحانه (ليس كمثله شيءٍ)، وهذا معنى قول السلف: " أمرُّها من غير تعطيل ولا تشبيه " أي ليس على ظاهرها مما يوهم الجسمية والمكان والجهة وغير ذلك من صفات المخلوقين وقولهم في بعض الروايات: " أمرُّوها بلا تكييف " أي مع نفي الكيفية عنه سبحانه وتعالى.

وهذا يُسمى تأويلًا إجماليًا، وإن الذين أوَّلوا تأويلا تفصيليًا من بعض السلف وأكثر الخلف ليسوا على باطل، إنما هم على الحق كالذين أوَّلوا التأويل الإجمالي فكلٌّ من الفريقين لم يُعطِّلوا، وكلٌّ منهما يعتقد تنزيهَ اللهِ عن مشابهة الخلق، وإنما الضرورة تستدعي التأويل التفصيلي أحيانًا لردِّ شُبَهِ مَن شبَّهَ من الفِرَقِ ومَن عطَّلَ منهم، وليس هذا هو الخوض الذي حذَّرَ الله منه في سورة آلِ عِمران وإنما الذي حذَّرَ الله منه هو اتباع المتشابه المؤدي إلى التشبيه أو التعطيل.

وقولُ بعضِهم "القرآنُ لا يؤَوَّل" مردودٌ، فالقرآن من غير تأويل لا نفهم منه إلا القليل.

ثم التأويل يُشترَط فيه عدمُ تناقض الآيات بعضِها بعضٍ، وهذا لا يسلَم منه إلا مَن كان على قدَر في فهم اللغة العربية وعلى قدر في فهم كلام النبي صلى الله عليه وسلم، مع مراعاة القاعدة التي تفرضُ على المؤوِّلِ حملَ الآيات المتشابهات على الآيات المحكَمات كقوله تعالى:

(ليس كمثله شيء) وقوله تعالى (هل تعلمُ له سميا)[سورة مريم: 65] وقوله سبحانه (ولله المثَلُ الأعلى)[سورة النحل 60] أي لله الوصفُ الذي لا يشبه وصف غيره.

وقوله تعالى (فلا تضربوا لله الأمثال)[سورة النحل: 74] أي لا تُشبِّهوه بخلقه.

وقوله تعالى (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُوًا أحد)[سورة الإخلاص].

فلا يجوز وصفُ الله تعالى بصفات العباد كوصفه بأنه عقلٌ مدبِّرٌ، أو بأنه القوة الخفية أو المهندس الأعظم، أو بأنه روح أو بأن له فمًا أو غير ذلك مما لم يصف الله به نفسَه.

بل الله تعالى هو ذاتٌ موصوفٌ بصفاتٍ قائمة بذاته تعالى، وكاملة كمالًا مطلَقًا ولا يعرف حقيقة صفاته إلا هو سبحانه.

قال الإمام أبو سليمان الخطابي رضي الله عنه: "لا ينبغي أن ننطقَ بشيءٍ في ذاته، ولكن نصفه بما وصف به نفسه، ولا نقول فيه بالرأي شيئًا".

"وإن أسماءَه تعالى صفاتُه، وصفاتِه أوصافُه" كما قال الإمام البيهقي.

فإذا قلتَ (الله عليم) فمعناه: الله موصوفٌ بالعلم، وإذا قلتَ (الله قدير) فمعناه: الله صاحب القدرة التامة الكاملة.

وإذا قلتَ (الله نور) فمعناه أن الله صاحب النور أي صاحب الهداية أي أنه الهادي، وليس معناه أنه نورًا بمعنى الضوء المعروف، فقد فسَّر ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما قولَه تعالى (الله نور السموات والأرض)[سورة النور: 35] أي الله هادي أهل السماء من الملائكة وأهل الأرض من مؤمني الإنس والجن لنور الإيمان.

وإذا قلتَ (الله علي) فمعناه موصوفٌ بعلو القدْرِ.

وإذا قلت (الله كبير) فمعناه أنه موصوفٌ بأنه أكبر من كل شيءٍ قدْرًا.

غير أن بعضَ ما وصف الله به نفسَه لا يُسمى به، فقد قال تعالى (الله يستهزئُ بهم) و (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) يعني أن الله وصف نفسه بأنه يستهزئُ بالكافرين وأنه يمكر بهم أي ينتقم منهم ويعاقبهم، وليس معنى المكر هنا إيصال الضرر للغير عن طريق الخداع تعالى الله عن ذلك، وكذلك استهزاؤه تعالى بالكافرين ليس كاستهزاء البشر بعضهم ببعض.

فلا يُسمى الله تعالى ماكرًا ومستهزئًا، فلا يقال عن الله يا ماكر يا مستهزئ إنما يقال يا حكيم ويا سميع ويا قادر ويا عليم....

ثم إن الدليل على جواز التأويل قولُ النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباسٍ (اللهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب) رواه ابن ماجه وابن سعد والطبراني في الكبير، وفي رواية (اللهم فقِّهه في الدين وعلِّمه التأويل) رواه الإمام أحمد والطبراني.

فلو لم يكن للكتابِ تأويلٌ لَما دعا النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباسٍ بهذا الدعاء، والمتشابه الذي لا يعلمه إلا الله هو ما كان من المغيبات كنزول عيسى وخروج دابة الأرض، ويأجوج ومأجوج، أما غير هذا فالنبي يعلم تأويله وإلا كيف يدعو لابن عباس بما لا يعلمه إلا الله تعالى حسبَ زعمِ مَن ينكر التأويل ويرفضُه، فالصحابة رضي الله عنهم والسلف كانوا يفهمون، وما فهم منهم أحدٌ من آية الاستواء نسبة الجلوس لله على العرش، ولا أحدٌ منهم فهم من الآيات والأحاديث المتشابهات نسبة الحركة أو الجهة أو الحلول أو أنه في السماء بذاته، إنما فهموا معانٍ تليق بالله تعالى.

فإن قال أحد فلِمَ لم يؤَوِّلوا إذًا؟؟ نقول: إنهم أوَّلوا تأويلًا إجماليًا حيث نفَوا عن الله الكيفية، وإن الحاجة إلى التأويل التفصيلي في زمانهم كانت قليلة، ولما كان أحد من علماء السلف يحتاج إلى التأويل التفصيلي كان يؤوِّل، وذلك عند ظهور فتنة المشبهة والمعتزلة وغيرهم.

فقد روى البيهقي أن ابنَ عباسٍ أوَّلَ الساق بالهول والشدة، في قوله تعالى (يوم يُكشَفُ عن ساق).

وروى أيضًا أن أنسَ بنَ مالكٍ أوَّلَ حديثَ النزول بأنه نزول رحمة لا نقلة.

وروى عن أحمد بن حنبل أنه أوَّل قول الله تعالى (وجاء ربك والملَك صفًا صفًا) وذلك عندما كان يناظر المعتزلة في مسالة خلق القرآن، فقال لهم عندما احتجوا عليه بهذه الآية أن معنى جاء ربك أي جاءت آثار قدرته.

وكذلك لما قالوا له حديث (تأتي سورة البقرة وآل عمران يوم القيامة تحاجان عن صاحبهما) قال أحمد يأتي الثواب.

وغيرهم من السلف أوَّلوا تفصيلًا عند الحاجة لذلك، وإن الذين لم يأوِّلوا التأويل التفصيلي من السلف والخلف من أهل السنة، لم يكونوا يعترضون على مَن أوَّل منهم يعني التأويل الذي لا يؤدي إلى تعارُض المحكَم، وعدم تأويلهم ليس لأنه بدعة أو منهي عنه، وإنما لأنه من فرض الكفاية لدفع شبهةٍ ما حيث تدعو الحاجة لذلك، فالإمام عبد القادر الجيلاني والإمام الرفاعي رضي الله عنهما سلكا مسلك أكثر أهل السلف ليس لجهلٍ منهما بعلم التوحيد، وإنما كان في كل زمن من الأزمنة مَن هو قائمٌ بالرد على الفِرَقِ الضالة بالأدلة النقلية والعقلية، فكان اهتمام البعض الآخر بالفقه والبعض بالحديث والبعض باللغة، والبعض بالإرشاد والتربية كالجيلاني مع رده على الفِرق الضالة ببعض التأويل لما دعتِ الحاجة.

وبالجملة لا يجوز وصف الله بشيءٍ من أوصاف البشر، وما كان كذلك في كتابه فهو كما هو لائقٌ بجلال وكمال صفاته، لا شبيه له وهو الواحد الأحد، فتعالى الله عن الحد والمكان والزمان والمقدار والهيئة والصورة والشكل والجسمية، وتعالى عن كل كمالٍ لا يليق به فهو الذي خلقَ كلَّ شيء وقدَّرَه تقديرًا، فهو موصوفٌ في كتابه وسنة نبيه وكلام الحكماء العارفين بكل كمالٍ ومنزَّه عن كل نقص (ليس كمثله شيءٌ وهو السميع البصير).

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.